مدخـل الـى علـم اللسـان الحديث (3)

القـرن التاسع عشر : عصر الدراسـات المقـارنة والتاريخية

لقد مهد القرن الثامن عشر ، كما قلنا ، لعلماء القرن التاسع عشر سبل المقارنة العلمية بين اللغات . فان الشيء الكثير مما حدث فى ذلك العصر ، فى مختلف الميادين : السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها وما سينتج عن تلك الحوادث الخطيرة من التغيير الجذري فى أوضاع المجتمع الاوربي يفسر التغيير المماثل الذي أصاب بعد حين وجيز الاوضاع الفكرية والتقاليد العلمية التي عرفتها أوربا حتى ذلك الزمان . فان الانقلابات الطبقية التي أضعفت أو أزالت الاستبدادية الملكية فى هذه البلدان كانت أيضا سببا فى اضعاف سلطة الكنيسة ورجال الدين لا سيما فى أمور الدنيا وحرية التفكير العلمي . وهذا سيكون له أثر عميق فى الدراسة العلمية للغـات اذ لم يتقيد بعد ذلك أكثر العلماء بما كان يراه آنذاك أرباب الكنيسة الاوربية من أن المخلوقات لم يصبها أي تحول عميق منذ أن خلقت . وكذلك اعتماد جمهور اللغويين بأن اللغة اليونانية أو اللاتينية هي أكمل اللغات أو أن العبرية هي أقدمها وأقدسها (1) . ان هذه الانقلابات التي حدثت فى هياكل المجتمع

---

(1) وذلك لاسباب دينية كما قلنا وفيما يخص تفضيلهم للغاتهم القومية الحديثة أو القديمة فهو من محض العصبية وذلك كتفضيل الشعوبية قديما للفارسية واليونانية على سائر اللغات وما رد عليهم بعض الادباء العرب فاداهم ذلك الى تعصب مماثل لتعصب العجم وغيرهم (انظر مثلا ابن فارس فى الصاحبي ، ط . السلفية ، 1328 ، ص 12) . ولابد ههنا من تفنيد ما نقله مونان فى تاريخه للسانيات قبل القرن التاسع عشر عن بعض المستشرقين . فقد قـال (ص 113) ، بأن « النحاة العرب كانوا يجعلون من اللغة العربية أم اللغات وانها لغة أهل الجنة بل لغة الله » !. أما القول الاول والثاني فما رأينا أحدا من النحاة الاولين الحقيقيين المجتهدين يقوله أو يجزم به بل وجدناه عند بعض المؤرخين والمفسرين ممن كان يجمع كل مـا يسمعه بدون أى نقد (مثل ابن اسحاق) فاعتمدوا الاساطير الفلكلورية التي كان يروجهـا القصاص . وكان أشد الناس كراهية للقصاص لعدم تحرجهم هم النحاة أنفسهم (أنظر كلام المبرد الذي رواه ابن السراج فى أصوله ، الورقة 95 ظ . والمزهر ، 2 ، 232) . وكان فى ضمن هذه القصص والخرافات ما نقل أيضا من الاسرائيليات أما النحاة واللغويون فكانوا يمسكون عن ذكر مثل هذه الاشياء وقصارى ما قال البعض منهم هو أن « أول من فتق لسانه بالعربية المبينة اسماعيل » (عن أبي عبيدة . البيان والتبيين تحقيق ع . هارون ، 3 ، 292) . والمراد بالمبينة هذه التي نزل بها القـرآن أما عربية القبائل البائدة مثل جرهم فكانوا يقولون « انها عربية أخرى غير كلامنا هذا » (المزهر ، 1 ، 33) . أما القول الثالث فهو شنيع وأشنع من هذا أن ينسب الى علماء العرب . فان هذا لم يقله أحد من العلمـاء المسلمين لانه تجسيم محض . فاذا جاز للمسلم أن يقول عن القران انه كلام الله أي خطاب

اثارت ايضا رد فعل آخر ضد العقلانية المطلقة وخصوصا ضد النظرة السكونية التي وقف عند حدها أكثر العلماء منذ أقدم العصور فى تحليل الظواهر . وقد سبق أن رأينا أن التوسع الاستعماري الاوربي قد أتاح للاوربيين منذ نهاية القرن السادس عشر ـ وسيستمر الى بداية القرن العشرين ـ الاطلاع على الحضارات الانسانية القديمة والحديثة التي لم يكونوا يتصورونها بل ولا يسمع عنها الكثير الا الاخبار المشوهة الشبيهة بالخرافات . وعند ذلك ظهرت الدراسات المتخصصة فى تاريخ وحضارة البلدان الشرقية والامريكية .

أما عدم التقيد بالاقوال المسلمة وبدون تمحيص والعقلانية الصماء (أي التي تبني كل شيء على الاحكام المجردة السابقة للمشاهدة والتجربة) فقد نتج عنه أمران خطيران . الاول هو تزايد اهتمام علماء ذلك العصر بعلوم الاحياء ففي هذه العلوم صار طرح كل الاقوال الجازمة التي لا تعتمد على المعاينة المباشرة للطبيعة مبدأ عاما معمولا به عند الجميع . وبذلك تكاثرت المشاهدات للطبيعة والاحياء وحصل العلماء على عدد كبير من المعلومات الصحيحة الدقيقة فافتتن الباحثون فى علوم الانسان بهذا المبدأ وتحمسوا لمناهج علوم الاحياء فراحوا يطبقونها على القوانين والعادات وسائر النظم الاجتماعية وبالخصوص اللغات البشرية . والذي لاحظوه هو أن هذه النظم لا يستقر لها حال بل تتغير مع مرور الزمن وهذا كان تنبه اليه كل العلماء قديما الا أنهم لم يبحثوا ـ الا القليل ـ عن نواميس وأسرار هذا التحول الزماني . وبذلك نشأت فكرة التفسير التطوري أي تفسير الظواهر ـ الاجتماعية بالخصوص ـ فى وقت ما بالرجوع الى ما كانت عليه قبل ذلك بقرون أو آلاف السنين (ونبذ فى نفس الوقت لكل ما عساه أن يخالف هذه المشاهدة من المسلمات العقائدية أو الشبه العلمية) وبالاطلاع على المراحل والاطوار التي مرت عليها فى أثناء هذه المدة . أما الثاني فهو يخص الادبيات وحركاتها وقد عرفنا أن الدراسات للغات كانت شديدة الارتباط بهذه الحركات وذلك منذ أن تمكن الاوربيون من احياء الآداب القديمة (اليونانية اللاتينية) فى القرن السادس عشر الا أن هذه الآداب كان قد غمرتها فى القرن السابع عشر تلك العقلانية التي أشرنا اليها فصارت الفنون الادبية ومسالك الادباء فى ممارسة هذه الفنون وكذا أساليب التعبير كلها خاضعة لمعايير جمالية هي أشبه شيء بالمعايير المنطقية وذلك نزولا لرغبة النخبة المثقفة فى أن يكون التعبير الفني منتظما يستسيغه العقل ! (المجموعة من القواعد المنطقية الجامدة التي يسمونها عقلا لا العقل كقوة انشائية بناءة) . وكان من أمر الادباء ازاء هذا الطاغوت الادبي أن خرجوا

(message) موجه الى البشر وان يعتقد بالتالي أن فعل الكلام صفة لذات الله كسائر الصفات التي يذكرها سبحانه فى كتابه العزيز فانه لا يجوز أن يقول ان العربية او الآرامية هي لغة الله لمجرد نزول الوحي بهاتين اللغتين لان اللغة فى ذاتها وسواء قلنا انها من تواضع البشر أم الهام من الله فهي آلة مسخرة للتبليغ ومن ثم فقد خلقت ليستفع بها الناس . فاذا خاطب سبحانه الناس بوساطة انبيائه فانه تعالى يخاطبهم بما يفهمون وقد قال جل من قائل : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .

بدورهم ــ بل وفى ذلك الزمان نفسه ــ على المعيارية المستبدة وكانت بذلك ثورة الرومانسية (Romantisme) التي انطلقت من جان جاك روسو وشاتو بريان فى فرنسا وغوته فى المانيا . وظهر فى هذه الحركة الادبية ولوع الناس بالاحداث التاريخية واخبار الامم القديمة فانكبوا على دراسة العصور الوسطى فى أوربا لأنه كان أبغض عصر عند الادباء العقلانيين ومالوا ميلا شديدا الى اكتشاف الحضارات الغريبة عن أوربا . ونذكر بهذا الصدد أن وصف لغات العالم قد استمر فى هذا العصر فقد أخرج أديلونج (J. Ch. Adelung) كتابا جامعا لأوصاف الالسنة البشرية سماه Mithridate وتابع عمله فاتر (Vater) (برلين : 1806 ــ 1817 ، فى 4 مجلدات) . وكان أثر الرومانسية عميقا بالطبع على دراسة الالسنة ولا سيما فى المانيا وحاول الاوربيون من غير الالمان أن يفسروا هذه الرغبة الشديدة التي أظهرها الالمانيون فى هذا العصر فى الاطلاع على ماضيهم وتراثهم الفلكلوري فزعم أولئك المفسرون أنهم وجدوا فرصة بظهور الاتجاهات الجديدة ، الى تمجيد الامة الجرمانية وازالة عقدتهم ازاء ما كانت تفتخر به الامم الناطقة باحدى اللغات الرومانية من تراث أدبي ضخم فذهبوا يدرسون آداب الجرمان لأنه بان لهم بعد هذه الثورة بأن لا فضل لأدب على آخر وكل يستحق الاحترام ، وتوغلوا حينئذ فى الدراسة الفيلولوجية لنصوص الجرمان القديمة ففاقوا بذلك جميع أمم الدنيا فى دراسة اللهجات القديمة الجرمانية وآدابها وذلك من خلال عدد كبير جدا من الوثائق العتيقة . والذي لا غبار عليه أن هؤلاء العلماء الالمان هم الذين وضعوا أسس الدراسة المقارنة التاريخية للغات و « انهجوا سبيلها وبعجوا النحو المقارن ومدوا القياس والعلل فيه » . وهي مفخرة لهذه البلاد الى يومنا هذا . الا أن بعضهم غالوا فى الاعتزاز بماضي الجرمان وذكر مآثرهم الى درجة أنهم أحدثوا عصبية وقومية متطرفة خصوصا بعد أن داس نابليون كرامتهم عند غزوه لبلادهم . وفى هذا العصر أيضا بني الاوربيون نظرية العلاقة بين بنية اللغة الخاصة بقوم وبين مميزاتهم الخلقية (2) . ثم اشتد بعد ذلك غلو

---

(2) واول من أظهر هذا الراي هو هرديـر(Herder)(من 1744 الى 1803) وأيده فون هومبولت والذي نراه ويراه الكثير من معاصرينا أنه يوجد ــ لا محالة ــ بين اللغات فوارق ترجع الى ما يختص به كل قوم من ميول ونزعات ونظرات الى الواقع وهي ناتجة عن تاثير المناخ والبيئة فى طبائع القوم . ولكن أهم سبب للاختلاف هو ابتعاد المجتمعات بعضها عن بعض وقلة اتصالها وتداخلها لمدة طويلة جدا وبذلك يتطور بعضها فى ميولها ونظراتها لهذا الواقع وبالتالي فى بعض هياكل لغاتها تطورا مفارقا ومخالفا لبعضها الآخر رغم وجود نزعات عامة تشترك فيها جميع المجتمعات وجميع اللغات . وما يمكن ان تختص به امة دون اخرى ويكون له علاقة باخلاقها وعوائدها هو نظامها المفهومي المعبر عنه بالمفردات . اما مباني اللغة (اصواتها وصيغها) الاساسية الخاصة بها فليست تابعة بجملتها للنظام المفهومي بل لعدد كبير من العوامل تتداخل وتتشابك فمنها العامل الخارجي الذي يتمثل فى تقلبات الزمان كالتزوح الى مكان آخر والاختلاط بامم اخرى بسبب الغزوات او الاتصال السلمي وكذا الكوارث القومية العظمى مثل المجاعات والحروب المتمادية ثم الانقلابات الاجتماعية وغيرها . وكل هذا مما يصيب كيان اللغة البنوي . ومنها العامل الباطني اي القوى الكامنة فى نظام اللغة التي تدافع عن بقائها بارجاع ما فقدته من التوازن والاعتدال . واكبر دليل على ان خصائص اللغة ليست كلها ناتجة عن الخصائص القومية التي يتصف بها اصحابها هو انه يمكن ان نجد فى وطن واحد

بعض المفكرين منهم على ظهور نظرية داروين حتى انقلبت القومية عندهم الى عنصرية ونعرة عرقية (أنظر فيما يلي كلامنا عن الداروينية) .

أما فيما يخص اكتشافهم ، للحضارات الانسانية غير الاوربية الذي أتاحه لهم غزوهم العسكري للعالم ثم احتلالهم للاراضي النائية بصفة دائمة ، فزيادة على أنه أخرجهم من ذلك الاطار الفكري الضيق الذي كانوا يعيشون فيه ومكنهم من المقارنة بين معاييرهم الفكرية واللغوية ومعايير غيرهم من الامم (الا أن هذا لم يمس الا خواصهم فى ابتداء الامر . أما اتصالهم فى القرون الوسطى بالحضارة العربية فقد مس خاصة خاصتهم فقط !) . وأهم حادث أحدثه هذا الاتصال المستمر هو **اكتشافهم للقرابة الجوهرية بين لغاتهم ـ وخصوصا اليونانية القديمة واللاتينية ـ من جهة وبين اللغة السنسكريتية من جهة أخرى** . وان كان قد تكلم عنها أفراد قلائل من الاوربيين قبل ذلك الا أن الشعور الكامل الشامل بهذه القرابة قد تم بعد احتلال الانكليز للهند احتلالا منتظما أي فى النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وقد تفطن الى ذلك عدد من العلماء وأبرز هؤلاء هو وليام جونس الذي كان قاضيا فى مدينة كلكوتا ونذكر هنا بعض ما قاله أمام الجمعية الآسيوية البنغالية فى 1786 : انه يوجد بين اليونانية واللاتينية وبين السنسكريتية « من القرابة الوثيقة ، سواء فى موادها اللفظية وصيغها النحوية ما لا يمكننا أن نجعله من محض الصدفة . ولا يسع أي عالم فى اللغة ، أن يتأمل هذه اللغات الثلاث ، الا أن يعترف أنها قد تفرعت عن أصل واحد ربما ليس له وجود الآن . ولسبب مماثل لهذا ، الا أنه أقل قوة ، يمكننا أن نفترض أن السلتية والقوطية ... هما والسنسكريتية من أصل واحد أيضا . وكذلك الفارسية القديمة فقد تدخل هي الاخرى فى هذه الفصيلة ... » (3) . وابتداء من ذلك الوقت ، تكاثرت الدراسات للغة السنسكريتة وحاول العلماء (4) أن يبينوا هذه القرابة بحسب

له خصائص ثقافية واحدة وبالتالي نزعات وتفكير وعادات واحدة لغتين أو أكثر تختلف فى بنيتها اختلافا شديدا (مثل بعض لغات افريقيا والهند ومثل لغات بلجيكا وسويسرا واللغة التركية بالنسبة للعربية أو الفارسية عندما كان أصحابها متعايشين يكونون أمة واحدة) كما يمكن أن نجد بين لغتين لامتين تختلف ثقافتهما تماما قرابة بنوية عجيبة (وذلك مثل السنسكريتية واليونانية القديمة وهذا يفسره تاريخ هذه اللغات نفسه) .

(3) أنظر مجلة « البحوث الآسيوية » (Asiatic Researches) الجزء 1 ، ص 422

(4) نذكر منهم أحد المبشرين من الذين تخصصوا فى معرفة اللغات القديمة والسنسكريتية بالخصوص اليسوعي بولين فون سانت برتيليمي الذي ألف كتبا قيمة فى اثبات القرابة المذكورة (بين 1790 و 1804) ثم ظهرت دراسات وصفية كثيرة للسنسكريتية فى بداية القرن التاسع عشر ، أهمها دراسة ولكينس Wilkins الذي سبق ذكره وذلك فى سنة 1808 . وفى هذه السنة نفسها نشر فريدريك فون شليجل (Shlegel) كتابا أسماه Ueber die Sprache und Weisheit der Indier : « فى لغة الهنود وحكمتهم ») يذكر فيه البراهين القاطعة فى اثبات القرابة بين السنسكريتية واللغات الجرمانية . ولفظة Vergleichende Grammatik (= النحو المقارن) التي ستشتهر فيما بعد ، هي من وضعه وكانت لفظة Linguistik الالمانية لم توضع بعد فى زمانه .

ما كانت تسمح لهم قرائحهم فى ارتجال المناهج الناجعة وتقديم الحجج المقنعة . وهكذا نشأت شيئا فشيئا طرق المقارنة العلمية بين اللغات . وكانت تكونت قبيل هذا الحلقات الكثيرة لدراسة اللغات الشرقية وقد ساعدت كثيرا على تنمية المقارنة بتلقينها العدد الكبير من لغات الشرق للطلبة والباحثين . وأهم هذه الحلقات بل أخطرها (لأنها جمعت كل الباحثين تقريبا الذين سينالون حظا وافرا من الشهرة فى القرن التاسع عشر فى علوم اللسان) هي حلقة العالم الفرنسي سلفستر دي ساسي (Silvestre de Sacy : 1758 — 1838) وقد امتاز هذا الباحث الجليل القدر عن سابقيه (وحتى عمن سيأتي بعده) بمعرفة واسعة جدا للغات الشرقية وما نشره أهلها قديما فى الدراسات اللغوية وكان متضلعا بالخصوص من علوم اللغة العربية (5) . فهو الذي كون شيزي (Chezy) فى اللغة السنسكريتية والاخوين فون شليجل (Von Schlegel) والاخوين جريم (Grimm) وفرانتس بوب وفون هومبولت وغيرهم كثيرون . وأهم شيء اكتسبه هؤلاء من دروس دي ساسي هو اطلاعهم من خلال دراستهم للعربية واللغات السامية الاخرى على المفاهيم اللغوية والنحوية العربية التي كانت تنقصهم فى ثقافتهم الفيلولوجية التقليدية وكذلك كان الامر بالنسبة الى النحو والصوتيات (6) . وكان بعضهم قد أخذ أيضا معلومات كثيرة فى هذا الميدان من حلقة أخرى تكونت قبل ذلك فى هولاندا . فقد حاول العلماء الهولنديون آنذاك أن يطبقوا على اللغات الاوربية التحليل العربي للكلمات الى مادة أصلية وصيغة ثم طريقة اكتشاف الاصول الثنائية والثلاثية والرباعية . وقد تأثر العلماء الذين ذكرناهم أيما تأثر بما سمعوه عن المناهج العربية القديمة .

---

(5) ان ما انتجه من الدراسات فى نحو العربية وما ترجمه الى الفرنسية من كتب النحو والتجويد القديمة يدل بوضوح على أنه ادرك — ادراكا لا باس به — مفاهيم ومناهج النحاة العرب (فى الغالب : انظر الهامش الآتي) .

(6) رغم الذي قلنا من معرفة دي ساسي لمقاصد النحاة العرب فان الكثير مما تركوه من التحليلات العميقة والمفاهيم الدقيقة ما كان يمكن أن يفهم فى ذلك العصر لعدم خوض الغربيين بعد فى هذا النوع من البحث ونخص بالذكر مناهج الوصف البنوي ومفهومي الاصل والفرع والطريقة التفريعية وكذلك مفاهيم الصوتيات العربية التي هي مخالفة تماما لمفاهيم اليونان (والهنود أيضا) وذلك مثل مفهوم الجهر والهمس . انظر فى هذا الصدد ما قاله أحد الباحثين الاوربيين :

« ما حصل مستشرقونا الا فى زمان متاخر على المعلومات الصوتية الكافية ، على أقل تقدير، لفهم ما تركه العرب من ملاحظات . وهي ملاحظات فى الغالب صحيحة تمام الصحة . فدي ساسي مثلا لم يفهم شيئا من التقسيمين الهامين التاليين (يذكر بعد ذلك تقسيم الحروف الى مجهورة ومهموسة ثم الى شديدة ورخوة) » E. Mattson, *Etudes phonologiques sur le dialecte arabe de Beyrouth, Archives d'Etudes Orientales,* vol. I, p. 10, Upsala, 1911. **ولا يزال بعض اللغويين ، مستشرقين وغير مستشرقين ، يطيلون الكلام عن المفاهيم الصوتية الصرفة : الفيزيائية والفيزيولوجية من دون أن يعتمدوا فى ذلك على تجارب منتظمة بل ومن دون أن يكونوا دخلوا قط فى مخبر من المخابر الصوتية .**

غير أن فكرة المقارنة ومحاولة اكتشاف القرابة بين اللغات والبرهنة على تفرعها أو عدم تفرعها من أصل واحد ، كل هذا لم يرتح له دي ساسي ولم يرض به . اذ لم يقتنع بأهمية الافكار الجديدة بصحتها وفائدتها العلمية لأنه لم تنضج بعد وكانت في أول أمرها جد مرتبطة بالرومانسية والقومية ثم ان مناهجها لم تكن هي أيضا على جانب كبير من الصحة والدقة أول ما ظهرت . وزد على ذلك أنه كان متشبعا بمباديء النحو الوصفي التعليلي (وقد تأثر بأقوال كوندياك) وهو يمثل في زمانه ذلك المذهب الذي تناقله عدد من العلماء منذ القرن الثالث عشر من طريق جيمس هاريس (Harris) وسنكتيوس (Sanctius) الاسباني عن النحاة العرب مباشرة أو عن لغوي وفلاسفة السكولاستيك عن فلاسفة العرب (7) . وساعده على التمسك بهذا بالمذهب تحمسه للمنهجية النحوية العربية الا أن اطلاعه على نحو ومنطق بورواياال قد جعله يخلط هو أيضا بين المفاهيم التعليلية العربية الصميمة والتحليل المنطقي الارسطوطاليي . وقد ترك لنا كتابا في النحو العام (8) .

أما تلاميذه ـ الالمان بصفة خاصة ـ فبعد أن حصلوا على المعارف العديدة في مباني وآليات اللغات الشرقية وبعد أن اتضح لهم الكثير من المفاهيم اللغوية التي كانوا يجهلونها (والتي لم يجدوها في الثقافة اليونانية اللاتينية) فلم يستطيعوا أن يفلتوا من الاندماج والاندفاع في تلك الحركات الفكرية التي أثارتها الانقلابات الاجتماعية وهي كما سبق أن قلناه : الرد العنيف على المذاهب العقلانية أولا وتبلوره في الرومانسية ثم العصبية القومية التي دفعت الجرمان بالخصوص الى البحث عن تاريخ لغاتهم الاصلية وآدابها (وكذلك الفرنسيون فيما يخص السلتية) لمنافسة الحضارة اليونانية اللاتينية . فاستغلوا ما كانوا امتلوه من المعلومات اللغوية لوضع مناهج جديدة في البحث اللغوي تتماشى مع النزعات الجديدة. **وتعد سنة 1816 عند عامة اللغويين الاوربيين من الجيل السابق سنة ميلاد اللسانيات كعلم** لصدور أول كتاب تحلل فيه لأول مرة في التاريخ ـ عدة لغات من **الوجهة التاريخية** وعلى أساس المقارنة العلمية ، **لغرض علمي بحت ويتجنب** فيه فرض الحدود والمعايير (prescription) والتأمل الفلسفي والتحليلي الارسطوطاليسي . وصاحب هذا الكتاب هو فرانتس بوب (Franz Bopp: 1967 ـ 1971) الذي مر ذكره (9) . فلاول مرة

---

(7) وتلا دى ساسي في العمل بهذه المباديء تلميذه فون هومبولت وسنتكلم عنه بعد قليل .

(8) نشر في باريس سنة 1799 وعنوانه : *Principes de grammaire générale*

(9) واسم الكتاب هو : *Ueber das Konjugationssystem der Sanskritsprache in Verglei chung mit jenem der griechischen, lateinischen, persischen und germanischen Sprache.* **فرنكفورت ، 1816 (نظام تصاريف الافعال في السنسكريتية بالمقارنة بينه وبين نظام اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية) . واستمر في بحوثه فنشر بين 1824 و 1831 مجموعة من الدراسات :** *Vergleichende Zergleiderung der Sanskrits und mit ihm verwandten Sprachen* **(تحليل مقارن بين السنسكريتية وقريباتها) وأخرج بين 1833 و 1852 الكتاب الذي صار**

في أوربا يتتبع الباحث الظواهر اللغوية كظواهر وأحداث على مثل ما كان علماء الفيزياء والاحياء يتتبعون الحوادث الطبيعية كظواهر وكأحداث ولا يقتصرون على النظر في بعضها ويطرحون بعضها الآخر لاستحسانهم ذاك واستقباحهم هذا (فيكونون قد أخضعوا نظرهم لمحض التحكم) . وظهر في الدانمارك كتاب آخر سنة 1818 ألفه راسموس راسك (Rasmus Rask 1787 — 1832) يدرس فيه القرابة بين اللغات الاوربية (ولم يتعرض للسنسكريتية والايرانية الا انه كان يرجح أنهما من هذه الفصيلة) . وذكرنا هذا الباحث هنا لأنه توصل مثل بوب (وكان قد اطلع على مؤلفات جيمارتي وسينوفيتش اللذين تكلمنا عنهما في الفصل السابق) الى بيان القرابة المذكورة بطريقة دقيقة جدا وكان قدم نتائج بحثه (على اثر مسابقة نظمتها الحكومة الدانماركية) في سنة 1814 ، فيكون هو وبوب أسبق من درس القرابة اللغوية بالكيفية الموضوعية التي عرفت فيما بعد وأول من توصل الى اثباتها بفضل المقارنة الدقيقة . وسنتعرض لهما بعد هذا ان شاء الله .

يمكن أن نقسم المراحل التي مر عليها هذا النوع من الدراسات اللغوية المقارنة الى ثلاثة أطوار أو بالاحرى الى ثلاث تيارات لأن الاوضاع والافكار والنظريات وغيرها من الظواهر الاجتماعية لا تتطور تطورا متسلسلا على خط مستقيم ، كما قلنا (كأن لا تظهر نزعة الا بزوال غيرها ولا تزول الا بظهور نزعة جديدة وهذا غير صحيح) ، بل قد نجد نزعة فكرية ينزعها أغلب الناس في فترة معينة ونلمح في وسط هؤلاء فردا أو أفرادا آخرين قد بدأوا ينزعون نزعة أخرى جديدة لا عهد للناس بها بل نلاحظ أيضا في ذلك الوسط غيرهم من الناس بقوا متمسكين بنظريات قديمة كانت رائجة في الفترة السابقة ثم يأتي حين فنرى أصحاب النزعة الجديدة قد تغلبت آراؤهم على غيرها وفي الوقت نفسه تظهر نزعات أخرى وهكذا دواليك . ولذلك فان التيارات التي سنذكرها هي تيارات متداخلة زمانيا — بنسبة متفاوتة طبعا — ففكرة التحول اللغوي مثلا فكرة قديمة جدا وكذلك فكرة القرابة بين بعض اللغات (10) الا أن فكرة الوصول الى اثباتها بالمقارنة

عماد كل المختصين في المقارنة وهو *Vergleichend Grammatik* الذي حلل فيه بالمقارنة الانظمة الصوتية (ولم يهتم في أول أمره بالاصوات) والتصريفية والتركيبية للغات المذكورة وزاد عليها الارمنية والليتوانية والسلافية والقوطية (ورجع أيضا الى الفارسية القديمة) . وكان تمكن من النظر في هذه اللغات بفضل ما نشر من الوثائق القديمة والدراسات الكثيرة في ذلك الزمان .

(10) أما فكرة التطور كتحول يعتري اللغات عبر الزمان فنجدها عند النحاة الاولين من طبقة الخليل ومن جاء بعده . فكثيرا ما كان الخليل يفسر ظواهر اللغة بالرجوع الى حالة أقدم يفترضها (بمقارنة في باطن اللغة وهذا ما يفعله الآن أهل اللسانيات) وذلك كتفسيره لكلمتي « لن » و « وليس » بأنهما مركبتان من مادتين التصقتا فصارتا كلمة واحدة بكثرة الاستعمال. وفهمه غيره على أنه تفسير بنوي فلم يصححه وهذا طبيعي لان لهما تفسيرا بنويا محضا غير هذا انما قول الخليل يمكن أن يصحح على أساس التأصيل الزماني . وأما سيبويه فكان أميل الى التفسير بالبنية ولكنه يعلم مع ذلك أن بعض الظواهر لا يمكن أن تفسر الا باعتبار العامل الزماني ويظهر ذلك في قوله : « فان كان غريبا ولا نعرف الذي اشتق منه فانما ذاك

المنتظمة المبنية على المشاهدة واستقراء جميع اللغات هي فكرة القرن الثامن عشر وتحقيقها هو من عمل علماء القرن التاسع عشر كما قلناه في الهامش السابق . ولا يظن القاريء أن هذا الاتجاه الجديد في دراسة اللغات قد ارتاح له جميع اللغويين وتهافتوا عليه بمجرد ظهوره (وقد رأينا ذلك عند كلامنا على سلفيستر دي ساسي) بل قد عارضه أصحاب الفيلولوجية الكلاسيكية التي كانت سائدة في ذلك الوقت وكانت امتدادا للدراسة المعيارية التقليدية للغات القديمة ، معارضة شديدة جدا . وكم سخروا من بوب عندما وجدوا في كتابه بعض الاخطاء فيما يرجع الى أبنية اللغة اللاتينية (ولم يكن بوب ، مع الاسف ، من المتخصصين في اللاتينية حتى يستطيع منافسة هؤلاء الفيلولوجيين) .

ان التيارات الثلاث التي ذكرناها يمكن أن نحددها هكذا :

ـ **المقارنة من أجل بيان** القرابة بين اللغات الهندية الاوربية

لانا جهلنا ما علم غيرنا أو يكون الآخر لم يصل اليه علم الاول المسمي » (1 / 268) . ثم ان التفسير والتحليل في النحو العربي أكثره بنوي لا تاريخي وقد نبه ابن جني على ذلك في باب رائع من أبواب الخصائص سماه : « باب مراتب الاشياء وتنزيلها تقديرا وحكما لا زمانا ووقتا » وقال في صدره : « هذا الموضوع كثير الابهام لاكثر من يسمعه » (1 / 256) وما أصدقه على بعض معاصرينا ! ويصرح في موضع آخر : « وهذا ونحوه يدلك على تنقل الاحوال بهذه اللغة واعتراض الاحداث عليها وكثرة تفولها وتغيرها » (1 / 386) ويقول : « قد يمكن أن يكون ذلك وقع اليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها وتابدت معالمها » (1 / 386) و « وليس كذلك أهل الحضر لانهم يتظاهرون بينهم بانهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب الى اللغة العربية الفصيحة . » ويذكر أيضا كلام الاخفش تلميذ سيبويه بهذا الصدد : « يجوز أيضا ان يكون الموضوع الاول ضربا واحدا ثم رأى من جاء بعده أن خالف قياس الاول الى قياس ثان جار في الصحة مجرى الاول » (2 / 29) وأصح من هذا ما يرويه عنه : « وقد كان أيضا أجاز أن يكون قد كانت (الالفاظ المبنية) قديما معربة فلما كثرت غيرت فيما بعد » (22 / 31) فهذا كانه تفسير لعلماء اللسان المحدثين (وتسمى عندهم هذه الظاهرة : grammaticalisation) وكان للمفكرين العرب من غير النحاة تفسير آخر بنوه على العامل الفيزيولوجي (ومفهوم الاستثقال عند النحاة هو من هذا الباب) . قال اخوان الصفا : « اعلم ... أن أصل الاختلاف في اللغات هو اختلاف مخارج الحروف ونقصها عن تادية ما يؤديه البليغ (= ههنا الذي يتكلم على السليقة أي المتكلم بلغته الاصلية) » (ط . بيروت ، 5 / 118) . أما فكرة القرابة وتفرع اللغات تفرعا زمانيا فلاشك أن بعض القدماء ومنهم بعض أحبار اليهود أيضا تنبهوا له وان لم يصيبوا غالبا في تحديد الاصول والفروع . ويجدر بنا أن نذكر بهذا الصدد كلام ابن حزم المشهور في قرابة اللغات السامية . يقول : « ان الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر لا لغة حمير ، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث جرش كالذي يحدث من الاندلسي اذا رام نغمة أهل القيروان ومن القيرواني اذا رام نغمة الاندلسي ... ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط (Llano de los Pedroches) وهي على ليلة واحدة من قرطبة كان يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة . وهكذا في كثير من البلاد فانه بمجاورة أهل البلدة بامة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تامله (الاحكام في أصول الاحكام) ، القاهرة ، 1345 – 1347 ، 1 / 31 – 32) انظر أيضا مقدمة ابن خلدون ، الفصول 45 – 48 من الباب السادس .

وختاما لكلامنا هذا فانه يجب أن نلفت نظر القاريء الى أن هاتين الفكرتين أن وجدتا على شكل من الاشكال عند الالمعيين من علمائنا القدامى فان تحديد القرابة وتتبع التطور عبر الزمان بكيفية علمية مستفيضة لم يحقق الا على أيدي العلماء الغربيين في القرن التاسع عشر .

ـ التشبيه بين اللغات والكائنات الحيــة
ـ التتبع التاريخي الدقيق والاهتمام بتقنين التطور وتعليله .

وكان لكل واحد منها عصره الذهبي . فأما الاول فقد رأيناه انطلق من رغبة الاوروبيين الشديدة فى العثور على مبدأ ومنشــأ لغتهــم الاصليــة وخصوصا الجرمانية منها (وأحيانا على اللغة البشرية القدمى وشاعت عند ذلــك كلمــــــــــةUrspracheأي اللغة الام الاصلية) وكانت نظرة الباحثين فيها نظرة تاريخية لزوما (لا معيارية ولا وصفية) ولكن لم يهتم أصحابها فى أول الامر بالبحث التطوري واكتشـاف مراحل التحول وما لبث هؤلاء الباحثون ـ بعد سنوات قلائل ـ حتى اهتدوا الى المنهج التاريخي الذي كان أساسه ـ كما سنراه ـ المقارنة بين لغة فى زمان معين ونفس اللغة فى زمان سالف بالنظر في جميع عناصرها كيف تحولت الى ما هي عليه فى الزمان المذكور . وعلى هذا فان المقارنة اكتسبت البعد الذي كان ينقصها وهو هذا التصفح لتطور العناصر اللغوية . وهذا لا يعني أن الدافع الاول اختفى بعد ذلك فان الغاية الاساسية بقيت زمانا طويلا البرهنة على القرابــة ـ ولن تختفي هذه الغاية ما دام فى الدنيا لغة لا يعرف لها أصل ولا منشأ . وأحسن من يمثل هذه النزعة شليجل وبوب وراسك والى حد ما فون هومبولت .
غير أن المقارنة أصبحت شيئا فشيئا ـ منذ أن نشر جريم (J. Grimm : 1785 ـ 1863) فى 1819 ثم فى 1822 (الطبعة الثانية) كتابه فى نحو اللغة الالمانية (وتشمل هذه التسمية عنده جميع اللغات الجرمانية) : *Deutche Grammatik* طريقة يستعين بها مؤرخ اللغات كما يستعين بها الباحثون عن المناسبات الموروثة ونرى هذا المزيج بين النزعتين ممثلا أحسن تمثيل عند بوب بالخصوص (11) . أما التيار الثاني فهو قديم أيضا فقد قلنا ان علماء الطبيعيات فى القرن الثامن عشر وابتداء التاسع عشر (نذكر منهم بالخصوص ليني السويدي (Linné : 1787 ـ 1778) والفرنسي كوفي (Cuvier : 1769 ـ 1832) كانوا قــد حصلــوا عــلى قــدر وافــر مــن المعلومات الموضوعية وأقاموا أيضا المناهج الصالحة لذلك **وبرعوا** فى تصنيف الحيوانات والنباتات بالمقارنة بين مختلف أجناسها فأثبتوا المناسبات الكثيرة بين أعضاء بعضها **وما تؤديه من وظيفة** وأعضاء بعضها الآخر . ثم جاء بعدهم من قارن بين الاحياء الحالية بهذا الاعتبار والاحياء البائدة من خلال أحافيرها

(11) واستمرت الدراسات المقارنة بعد ذلك على أساس الفكرة السابقة وكثرت البحــوث المتخصصة واقتصر بعض العلماء على المقارنة فى داخل كل فصيلة . فما من فصيلة هندية أوربية الا وجاء من تناولها بالبحث الدقيق بنفس المناهج فهذ ميكلوسيش ((Miklosisch : 1813 ـ 1891) ينشر من سنة 1852 الى 1875 : النحو المقارن للغات السلافية فى 5 مجلدات (ومعجما لمفرداتها فى 1862 ـ 1865) وكان قبله ديتس ((Diez : 1794 ـ 1876) قد نشر نحو اللغات الرومانيــة المتفرعــة مــن اللاتينيــة) فى 1853 وتسويـــس(J.K. Zeuss : 1806 ـ 1856)الذي درس اللغات السلتية بكيفية مستفيضة (1853) وقد راجع النظر بوب فى كتابه وأدمج فيه هذه اللغات فى النشرة الاخيرة . وممن امتاز من الفيلولوجيين بادخال منهج المقارنة فى بحــوثه جورج كورتيــوس : G. Curtius (1820 ـ 1885) وأثار ذلك ضجة فى أوساط الفيلولوجية آنذاك وله كتاب أسمه *Grundzüge der griechischen etymologie* (1858 ـ 1862) = أساس تأصيل الكلمات اليونانية .

فاستطاعوا أن يبينوا كيف تطورت هذه الاحياء حتى صارت على ما هي عليه ، وكل ذلك كان اللغويون يعرفونه فاقتنعوا بأن اللغة هي أيضا **جهاز عضوي** مثل الاحياء لأنها تتكون من عناصر ذات وظيفة وهي تنشأ وتترعرع وتكتهل ثم تشيخ وتموت مثل الاحياء . واكثرهم كانوا يعتقدون ذلك حتى بوب نفسه وكذلك شليجل فهو أول من دعا الى « تشريح » اللغات كما تشرح أجسام الاحياء (أنظر كتابه المذكور ، VI, I) الا أن هذه الفكرة لم تبرز بروزا كاملا ولم تسد جميع مظاهر البحث الا بعد ظهور نظرية داروين — أي بعد سنة 1859 وهي السنة التي نشر فيها كتابه الذائع الصيت عن « **اصل الانواع** » (12) وكان اكثر اللغويين تحمسا لهذه النظرية العالم الالماني فلهام فون شلايشر (Wilhem V. Schleicher : 1821-1868) ، وكان عارفا بعلم النبات وهو أول من طبق الداروينية (بالحرف) على اللغات البشرية (13) . فكان يأبى أن يقال انها حدث بشرى محض ويأبى أن يعتبر علم اللسان من العلوم الانسانية ! بل كان يغلو فى اعتقاده مدعيا أنه علم طبيعي بحت .

ـ ثم انه كان يعتقد ـ كسائر لغوي عصره ـ الا انه هو الذي نظره تنظيرا كاملا ـ « أن نظام اللغات قد تطور فى غابر الازمان من الاسوأ الى الاحسن ، ولا نعرف عن ذلك شيئا فيما يخص اللغات الهندية الاوروبية لاننا كلما رجعنا الى أقدم عهد نجد فيه اثرا يمكن تأويله ، وجدنا هذه اللغات قد بلغت أقصى درجات الانتظام والاحكام والدليل على ذلك وجود التصاريف فيها (Flectionen) ثم بعد ذلك تبدأ فى الانحلال فتتحول شيئا فشيئا من الاحسن الى الاسوأ بفقدان نظامها الاعرابي بالخصوص » ونظر ذلك بأن قال : « اللغات تمر لزوما على ثلاثة مراحل من تطورها : من صفة الانفصال (يتكون الكلام فيها من مقاطع منفصلة مثل الصينية) الى صفة الامتزاج (تركب العناصر فيها تركيبا مزجيا مثل التركية) الى صفة التصرف (تتصرف كلماتها ويلحقها الاعراب » (14) . ومما يمكن أن يعتبر مساهمة ايجابية منه قوله بوجود

---

(12) من المعروف أن الطبيب الفيلسوف اللبناني شبلى شميل هو الذي اذاع فى الشرق افكار داروين (فى مقالات نشرها فى مجلة المقتطف وفى كتاب شرح بخنر (Büchner) على مذهب داروين . نشره فى 1884 . (أنظر : كتاب فلسفة النشوء والارتقاء ، مجموعة الدكتور شبلى شميل ، القاهرة ، 1910) .

(13) اعلن موقفه هذا وشرحه فى كتاب : *Die darwinische Theorie und die Sprachwissenchaft* : النظرية الداروينية وعلم اللسان . ثم اقام على ذلك نظرية التفريع التاريخي على شكل شجرة .

(14) وهذا تقسيم مشهور (الا انه تركه اليوم العلماء) وبالانكليزية : agglutinating, isolating and flexional languages أما نظرته السابقة فهي نظرة خاطئة لسوء فهمه لمعنى التطور وسينتقدها اصحاب التيار الثالث وكل اللغويين الاوربيين فى أيامنا هذه وهم فى ذلك على صواب لان العلم الحقيقي لا يحكم على الظواهر ـ كعلم موضوعي ـ بانها حسنة أو سيئة (هذه المعيارية) ولا يعتبر التطور الا تحولا فقط مهما كان ولكنه يمكنه مع ذلك (خلافا للايجابيين المقتصرين على وصف الكيف) أن يبين بوصفه وتعليله لوجود هذه الظواهر انها اصبحت كنظم تؤدي وظيفتها احسن من ذي قبل أو لا تؤديه بل تؤديه باسوأ كيفية ـ وعلى هذا فان القول بان اللغات ذات التصريف والاعراب هي احسنها لا معنى له بالنسبة للعلم . أما اذا

قوانين تشترك فيها كل اللغات من حيث تطورها . فبما أن اللغة هي عنده (وعند غيره من أصحاب المقارنة) جهاز عضوي طبيعي (Naturlïch Organismus) فهي خاضعة فى بنيتها وتطورها لقوانين معينة ويجب على هذا أن تفارق مناهج البحث فيها المناهج المتبعة فى الفيلولوجية . وشلايشر هذا هو أول من حاول بالفعل اعادة الصورة التي كانت عليها اللغة الهندية الاوروبية البائدة (ال Ursprache) متبعا فى ذلك قوانين التناسب الموروث التي كان قد أثبتها هو ومن عاصره منذ البداية . وبلغ غلوه فى هذا الميدان أيضا الى درجة إدعائه امكانية التحرير بتلك العناصر اللغوية المفترضة ! فقد كتب بهذه اللغة المحتملة حكاية على شكل أمثال كليلة ودمنة ! (وسنحلل عند تعرضنا لمناهج المدرسة التاريخيه طريقة اعادة بناء اللغات) . وسادت هذه النزعة جميع مظاهر البحث كما قلنا حتى سنة 1870 حيث استفحل التيار الثالث وأزال تلك المبالغات وذلك التعسف الا أن اللغويين حافظوا على فكرة الاعادة الاحتمالية وما انفكوا حتى اليوم يهتمون بها ولكن شتان ما بينهم وبين شلايشر فان المناهج صارت الآن أكثر ضبطا والنظرية نفسها أكثر ابتعادا من تلك الآراء الساذجة . ولكن هذا لا يمنعنا من أن نعترف بفضل هذا الرجل وعبقريته ونحن متأكدون أنه لم ينبغ الى الآن مثله (ومثل الكثير من هؤلاء العلماء الالمان) فى سعة الاطلاع وغزارة العلم والعمل الجدي (15) .

أما التيار الثالث فهو الذي يجعل أساس البحث اللغوي التحليل التاريخي ومنهج الاستقراء لتطور عناصر اللغة ولا يهتم كثيرا بالجوانب النظرية الصرفة ـ وبالاحرى الفلسفية ـ فهومذهب عملي علمي يبني كل أحكامه على المشاهدة للمجرى التحولي ويستنبط من هذه المشاهدة القوانين الكلية والجزئية . وقد رأينا هذا التيار انطلق من أعمال جريم فى 1822 وبوت (Pott : 1802 — 1887) وديتيس فى 1836 . وجريم هذا هو وراسك

أراد أنها أنجع فى التادية (وهذا يفهمه اللغوي) ففير صحيح على كل حال لعدة أسباب . أهمها أنه ليست فى الدنيا لغة الا وهي تستعمل التصريف الدلالي فان للصينية علامات نغمية تتصرف عليها المقاطع فتتغير دلالتها بتغير العلامات . وكذلك هي التركية واخواتها وعلى العكس من ذلك فان للغات الاعرابية وسائل تتفير الدلالة بها غير الاعراب والتصريف وذلك مثل الحروف المنفصلة المؤثرة فى حكم الاعراب (ونجد ذلك فى اليونانية واللاتينية والعربية وغيرها) وأكبر دليل على خطأ ما ذهب اليه شلايشر هو أن اللغات التي ليست فيها اعراب ـ ولكن لها تصاريف أخر ـ مثل الانكليزية والفرنسية بل التركية والصينية تقدر كلها ـ أيما قدرة ـ على تادية مهمة التبليغ بانجع الكيفيات .

(15) وقد كان انتاجه العلمي جد عظيم . فمما لا يزال موضوع ثناء العلماء دراسته الوصفية للغة الليتوانية (1856 ـ 1857) (واهتمامه باللغات المنطوق بها آنذاك يخرجه من العادة التي ورثها أصحاب المقارنة عن الفيلولوجية وهي الاعتماد على اللغات القديمة المكتوبة فقط) وأعظم هذه الاعمال هو المختصر (ولم يكن مختصرا !) فى النحو المقارن للغات الهندية الاوربية فيمار . 1862 ـ 1863 *Compendium der Vergleichenden Grammatik der Indogermanichen.*

وكان لهذا الكتاب أثر على مثل ما كان لكتاب بوب الذي كتبه فى نفس الموضوع وممن روج أفكاره نذكر ماكس مولر (M. Müller) (1823 ـ 1900) وهو لغوي مشهور ولكنه أقل نبوغا بكثير من شلايشر .

أول من استنبط قانونا فى التناسب الصوتي بفضل المقارنة وسنتعرض لهذا فيما بعد . أما التفاته لتطور الظواهر اللغوية الجرمانية وجعله فى المرتبة الاولى من اهتماماته فهو لما توفر لديه من النصوص والوثائق فى اللغات الجرمانية القديمة . فتنوع أزمنتها والعصور التي يرجع اليها عهدها اضطره الى أن يقارن بين العناصر اللغوية المنتمية الى اللغة الواحدة من خلال الزمان . وقد كان بوب فى دراسته الاولى يقارن بين اللغة السنسكريتية التي يرجع عهدها الى ما قبل ألف سنة قبل الميلاد والقوطية التي ترجع نصوصها الى القرن الخامس بعده بل وبينها وبين الفارسية الحديثة وسبب ذلك هو عدم توفر النصوص فى الوقت الذي بدأ فيه عمله . ولكن بعد أن حصل الباحثون على الوثائق الكثيرة فى أكثر اللغات (16) اتفق الجميع على مراعاة الجانب التاريخي وعند ذلك ظهرت الدراسات التطورية البحتة أي التي لم توقف فيها النظرة التاريخية على الاهتمامات الاخرى . غير أن هذه النزعة لم تستحكم تماما الا بعد سنة 1870 . ففي سنة 1878 ظهرت مدرسة جديدة (فى المانيا أيضا) تلقب أصحابها « بشباب النحاة » Junggramatiker = أي النحاة الطلائعيون (17) ونشأت هذه المدرسة من خلاف حدث بين كارل بروجمان ، مؤسسها وأستاذه جورج كورتيوس (فى جامعة ليبزيش) الذي ذكرناه فيما مر (وهو يمثل النزاع بين الجيلين المتعارضين) . والذي أثار استياء النشء الجديد وعدم فهمهم لأساتذتهم هو التناقض الذي أظهروه لهم : فمن جهة يدعون الى التحرج والتوقف عن كل قول جازم لا يعتمد على أدلة الدراسة المقارنة التاريخية ، ومن جهة أخرى يفترضون الافتراضات التي لا يمكن أن تؤيدها هذه الادلة فمن ذلك بناؤهم لأحكامهم وتحليلاتهم على أن السنسكريتية هي أقدم اللغات الهندية الاوربية وأنه ينبغي أن تفسر كل الابنية على قياسها ومثالها . وهذا لا يتحقق بطريقة المقارنة التاريخية . ثم تساهلهم فيما يخص القوانين الصوتية وعدم احكامهم لصياغتها . وبهذا الصدد يقول بروجمان : « لقد كانت الغاية الاساسية لعلم اللسان المقارن الى حد الآن ... اعادة بناء اللغة الهندية الاوربية الام فكل الانظار كانت موجهة نحو هذه اللغة وفى داخل اطار كل واحدة من اللغات التي نعرفها بفضل الوثائق الادبية

---

(16) وساهم فى البحث عنها اكثر اللغويين نذكر منهم بورنوف (E. Burnouf) الذي كتب تعليقا لغويا على متن الياسنا الايراني (1833 – 1834) وبنفاي (Benfay) الذي نشر نص السمافيدا الهندي (1848) بترجمة ومعجم لمفرداته ومنهم – بالنسبة للسنسكرتية :
Whitney, Weber, Spiegel, Wastergaard, Müller, Roth
ومنهم من وصف أوضاعا لغوية اخرى لنفس هذه اللغات ومن جمع ورتب لكل المفردات الموجودة فى النصوص التي عثر عليها وذلك مثل Roth, Böthling **اللذين رتبا المفردات السنسكريتية فى قاموس ضخم . ولم يدرسوا فقط ما جاء فى المخطوطات بل سجلوا ودرسوا أيضا النقوش المحفورة على الاحجار والتماثيل والرموس وكونوا من ذلك مجموعة ضخمة من النصوص لدراسة أطوار اللغات (ونذكر ممن درس اللهجات اليونانية القديمة من خلال هذه النقوش) اهرينس (Ahrens) وله** *De Graecae lingua*

(17) وترجم احد اللغويين الايطاليين : Ascoli **هذه التسمية بـ** Neo-grammatici
« النحاة المحدثين » ويظهر انه لم يفهم جيدا سبب التسمية .

وفى داخل اطار التطور اللغوي لكل من السنسكريتية والايرانية واليونانية وغيرها ، فان الشيء الوحيد الذي كان يثير الاهتمام أو يكاد هي الفترات القدمى من هذا التطور وأقربها ما تكون الى اللغة الاصلية . ولهذا فان الفترات الحديثة لهذا التطور كانت مهملة يحتقرها الباحثون ظنا منهم أنها فترات قد أصابها الضنى والانحطاط والهرم ... فالصورة العامة للتحول الزماني الذي يصيب الصيغ اللغوية يجب أن نكونها لا على أساس ما نفترضه من الرموز للغة الاصلية ولا حتى على أساس أقدم ما وصلنا من السنسكريتية أو اليونانية وغيرها بل على أساس التطورات اللغوية التي يمكننا أن نتتبع سوابقها ، بفضل الوثائق ، على مدى من الزمان أطول وأن نعرف مبدأها بكيفية مباشرة » (18) .

فبهذا الكلام يتبين لنا أن النحاة المحدثين هم أول من نقض الاوهام التي سادت فى أوساط اللغويين فى الثلثين الاولين من القرن التاسع عشر وأهمها الاعتقاد بأن اللغات القديمة أشرف من الحديثة بحسب توفرها على أكبر عدد من الاحوال التصريفية والعلامات الاعرابية (19) وأن التطور اللغوي هو فى الواقع تحسن وارتقاء ثم تدهور وانحطاط (20) . ويمكن أن يفسر هذا الوهم بما ورثه هذا العصر من اعتقادات القرن السادس عشر : كان يظن الناس فيه أن العبرية هي أم اللغات وبالتالي أشرفها فعندما اكتشفت السنسكريتية قالوا ها هي ذي أقدمها وأشرفها . وكان لميل الناس الشديد الى اكتشاف أصل الانسان وأصل اللغات دافع قوي أيضا . ثم زد على ذلك عصبية اللغويين الغربيين التي حملتهم على تفضيل تاريخ أمتهم ولغاتها وارتياحهم الكبير عندما حققوا القرابة بينها وبين أقدم الآثار التي وصلتهم عن اللغة السنسكريتية . أما تشبيههم للغات بالكائنات

---

(18) ذكره مونان فى تاريخه ، ص 209 – 210 .

(19) والغريب أنهم حكموا على العربية بأن ليس لكلماتها أصول ! فى اصطلاحهم : الاصل = الجذر (racine, root, wurzel) مع أن هذا المفهوم نفسه قد أخذوه عن العرب (عند اطلاعهم على ما ترجم فى القرن 16 من كتب النحو) قبل أن يطلعوا على ما يشبه ذلك فى نظرية الهنود .

(20) والحق أن تدهور اللغات واختفاءها كوسائل لترويج المفاهيم الحضارية هو راجع الى تدهور الناطقين بها وذهاب نفوذهم المادي والخلقي . ولا سبيل الى اعتباره تدهورا « لغويا » أي انحطاطا وانتكاسا فى ذات اللغة (صيغتها وآلياتها) انما الانحطاط يكون فى نظامها المفهومي الحضاري وهذا ليس من صميم اللغة بل هو راجع الى ما تكتسبه عند استعمالها كأداة تعبير حضاري ولذلك فان جميع لغات العالم – الطبيعية أي التي توجد بالطبع – يمكن أن تؤدي مهمتها اذا استوفى أصحابها جميع أسباب النهوض . أما التدخل فيها من أجل تكييفها لمقتضيات العصر فهذا يفعله أكثر الشعوب عند شعورهم بضرورة حصر المادة الافرادية مع اثرائها بالمفاهيم الجديدة فى نفس الوقت . أما التدخل فى جوهرها الذي هو نظامها النحوي الصرفي فهذا يحتمل فيما يخص حصر الابنية الشائعة الحية النشيطة ولكن غير ممكن اذا قصد المتدخل تغيير الابنية من أساسها لانه سيحول من تلقاء نفسه هذه اللغة الى لغة أخرى (ولا تقول ان الجديد الذي طرأ فى النظام المفهومي والاقتباسات من اللغات الاخرى قد يجعل من هذه اللغة لغة أخرى لأن العبرة بالنظام الجوهري الذاتي وهو المجموع المنسجم من الآليات) .

الحية والاجهزة المعضاة فكم ارتاحوا له أيضا عندما تبينوا أن النتائج التي توصل اليها علماء الاحياء تؤيد آرائهم السابقة . وأما عدم اكتراثهم باطراد القوانين وقبولهم للكثير من العناصر الشاذة فهذا مما خلفته لهم الفيلولوجية القديمة وخصوصا الفيلولوجية الانسية (Humanisme) (انسية القرن السادس عشر) المزوجة بالفلسفة (بمعناها الاصلي : آراء ومذاهب الحكماء اليونانيين) (21) وأهم ما امتاز به النحاة المحدثون هو تمسكهم بهذا الاطراد وتقريرهم أنه لا يمكن أن توجد صيغ شاذة عن القوانين التطورية **الا لعلة معينة** وقد تخفى علينا هذه العلة لعدم اطلاعنا على جميع أحوال التطور بل على جميع أسراره وظروفه النفسانية والاجتماعية والفيزيولوجية . أما أن تفسر هذه الشواذ بالرجوع الى مباديء عقلية بحتة أو فلسفية ميتافيزيقية أو عوامل اعتباطية خيالية يصطنعها الانسان لارضاء نزعاته الخاصة به أو بقومه فهذا يعتبر تفسيرا غير علمي . فالقوانين التي يخضع لها تطور الاصوات مثلا هي قوانين مطردة لا تحتمل الشذوذ غير المعلل .

وأثار هذا الموقف الصارم من لدن هؤلاء الشبان (وأكبرهم لا يتجاوز 30 سنة في ذلك الوقت) جدالا شديدا مع علماء الجيل السابق . فحاول هؤلاء أن يبينوا أن كل هذا الذي يدعون اليه قد قيل قبل ذلك اليوم وليس هناك جديد . وهذا صحيح على العموم غير أن الجديد في هذا ليس هو الافكار في ذاتها ولكن دحضهم للاوهام المذكورة ثم صرامتهم في التمسك بالمنهج العلمي الاستقرائي — في داخل اطار علم اللسان التطوري — ونبذهم لكل رأي لا ينبثق من الواقع ، سواء كان من المشاهدة المباشرة أو المشاهدة المعتمدة على الوثائق الصحيحة (ولكل نظرية فلسفية مهما كان نوعها) .

وساعد هذا الشباب على الانتصار — وأي انتصار ! فانه لا يزال اللغويون الغربيون متشبعين بكل هذا الى حد الافراط كما سنراه بعد — حالة الجو العلمي الذي كان يسود البحوث منذ بداية النصف الثاني من هذا القرن . كان هذا الجو عبارة عن حماس عظيم لمباديء العلم الاستقرائي وآمال كبيرة في أن يكون ، في المستقبل القريب ، مفتاح كل مشكل وفرج كل مكروب بل ودينا يؤمن به كل انسان ! ففي هذا العصر لفت نظر المفكرين لانجاح العلوم الاستقرائية فحسب بل اجماع علمائه على حقيقة ما توصلوا اليه من المعلومات حسب أقوالهم ولم يكن ذلك ميسورا بالنسبة لعلوم الانسان حيث كثر الخلاف وتعددت فيها المذاهب المتناقضة أحيانا وذلك منذ أمد بعيد (22) . وعلى ذلك بنى بعض المفكرين نظريتهم في العلوم وذلك

---

(21) لم يستطع أي واحد منهم أن يتجرد تماما من هذين العنصرين لانهما أساس الثقافة الغربية التقليدية وما من أديب وفيلسوف عندهم ، حتى في أيامنا هذه ، الا ويؤكد أن الانسية هي « جوهرة » الثقافة الاوربية بل وسر ازدهار الحضارة الحديثة . وكذلك هو موقف الكثير من المثقفين العرب في زماننا . ويجدر بنا أن نذكر أن غالب العلماء من الجيل الجديد الاوربي ينبذ النزعة الانسية لانها تعوقهم في أبحاثهم العلمية البحتة .

(22) في هذا القول شيء من المجازفة يجب الانتباه اليه : فان علماء الطبيعيات والاحياء يختلفون هم أيضا في آرائهم أشد الاختلاف وتكثر عندهم النظريات والمذاهب . فالفرق بينهم

مثل استيوارت ميل (1806 – 1873) وأبرز هؤلاء هو أكوست كونت A. Comte (1798 – 1856) الذي سبق أن تكلمنا عنه وعن مذهب الايجابية فى مقدمتنا . ففي هذا الجو الذي غمره الاشمئزاز من النظر غير المعتمد على الحس (23) والامتناع الشديد عن الخوض فى الامور التي لا يمكننا مشاهدتها والتحقق من وجودها أو صحتها ، نهضت المدرسة اللغوية الجديدة (24) وازدهرت بعد قليل وصارت مؤلفات أصحابها هي المرجع الاساسي فى اللسانيات التطورية . وأكبر فضل لاحظه العلماء فيهم اليوم هو أنهم بتحرجهم العلمي وتشددهم فى تطبيق مباديء علم اللسان التاريخي قد زادوا المناهج المتبعة الى ذلك الوقت ضبطا عجيبا ودقة لم يشاهد مثلها قبل هذا وبذلك حصنوا اللسانيات وأبعدوها عن الاباطيل التي يروجها بعض الذين « يأخذون من كل علم بطرف » فى مسائل تأصيل الكلمات والعناصر اللغوية الاخرى ومنعوها بصفة نهائية من هذيان الصالونات و « ظرفائها » .

وبين غيرهم من العلماء والفلاسفة (التقليديين) ليس فى وجود الاختلاف النظري لأن هذا الاختلاف حسن بل ضروري لأنه يثير النقاش وعلى ضوئه تظهر الحقائق بل الذي يميزهم هو تمسكهم بمبدأ التصحيح الاختباري المستمر مهما كلفهم ذلك وعدم اقتناعهم من أجل ذلك بالوسائل الاختبارية التي يجدونها عند سابقيهم بل والاعتقاد كذلك أن الذي لا يمكن أن يشاهد اليوم من الظواهر عند قوم سيشاهد بالفعل غدا عند قوم آخرين وعلى هذا فليس هناك نظرية علمية تظهر الا ويأتي من يثبتها أو يدحضها أو يزيد أو يقلل من أهميتها بالتجربة وباستنطاق الوقائع وليست كذلك النظريات المتعلقة بالانسان أولا لصعوبة المشاهدة وثانيا وبالخصوص ، لعدم انتشار روح التجربة عند المختصين أو عدم تعودهم عليها بل وقلة رغبتهم فيها لتعودهم النقاش النظري البحت والاعتماد على أقوال الغير غالبا .

(23) وأثر الحسيين الانكليز الذين سبق أن ذكرناهم ، فى هذا المذهب غير ضئيل .

(24) كانت تتكون من كارل بروجمان (Karl Brugmann) : 1849 – 1919) وله من الكتب : (الحالة الراهنة لعلم اللسان ، *Zum heutigen Stand der Sprachwissenchaft* : ستراسبورج ، و *Grundriss der Vergleichende Grammatik der indergermanischen Sprachen* رسالة فى النحو المقارن للغات الهندية الجرمانية (1886 – 1893) ثم استهوف (Osthoff) : (أبحاث فى الصيغ ، *Morphologie Untersuchungen* 1847 – 1907) وله مع بروجمان 5 مجلدات : 1878 – 1890) وأثبت قانونا مشهورا فى تطور اللاتينية عرف باسمه . ثم دلبروك B. Delbrück (1842 – 1922) الذي كمل الـ *Grundriss* لبروجمان بدراسة للتراكيب *Vergleichende Syntax* (1893 – 1900) والذي نظر هذه الافكار ووفق بينها هو بول H. Paul (1846 – 1921) فى كتاب *Prinzipien der Sprachgeschichte* (أصول تاريخ اللسان : 1880) وطبع هذا الكتاب (الذي سماه البعض انجيل المدرسة النحوية الحديثة) خمس مرات (آخرها فى 1920) . وكان عالمان ألمانيان أيضا قد سبقا بروجمان الى القول باطراد القوانين الصوتية فى التطور هما : شيرير (W. Scherer : 1841 – 1886) ولسكيان (Leskien) (1840 – 1916) ولهذا يذكرهما بروجمان فى كتابه ويثني عليهما . ونذكر أيضا كارل فيرنير (K.Verner : 1846 – 1886) الذي صلح قانون جريم فى المناسبات الصوتية بين اللغات الهندية الاوربية بادخال عامل النبر فى التفسير .

واستمر البحث اللغوي على هذه الكيفية وبنفس التحرج والتحفظ فى اجراء التحليل واستخلاص النتائج ، الى ايامنا هذه ، مع الشيء الكثير من التكيف بالافكار البناءة والنزعات الخصيبة التي طرأت بعد ذلك . فاتسعت دائرة البحوث حتى عمت أكثر لغات العالم (25) . واضمحلت كل المناهج الشبه العلمية بوجودها واندمجت فيها كل الدراسات التي كانت تحتاج اليها هذه البحوث بعد أن طورتها وكيفتها بحسب ما كانت تقصده منها وذلك مثل الفيلولوجية القديمة فقد تحولت الى بحث منتظم فى النصوص العتيقة وتصحيحها بالمقارنة العلمية ودراسة لغتها من حيث الالفاظ والمعاني ونبذت بذلك جميع الاغراض الاخرى التي كانت ترمي اليها فيما قبل . وكان العالم الالماني فلهالم فولف (W. Wolff : 1759 – 1824) قد هيأ أسباب هذه الدراسة ابتداء من سنة 1777 وهو أحد الذين الهموا اللغويين طريقة المقارنة بين النصوص وأثر فى فون شليجل وفون هومبولت . وأصبح العالم اللساني فى هذا العصر فى نفس الوقت فيلولوجيا بهذا المعنى ولغويا مؤرخا لظواهر اللسان بطريقة المقارنة والتتبع التاريخي . ولذلك بقيت لفظة الفيلولوجية مستعملة الى هذه السنوات الاخيرة فكلما تم المزج بين الغرضين : جمع النصوص القديمة ونقدها نقداتاريخيا والنظر فيها لاستخراج أوصاف اللغة التي كتبت بها من جهة ثم المقارنة بينها بعد ترتيبها زمانا ومكانا لاثبات مراحل التطور اللغوي من جهة أخرى ، صار يطلق على هذه المجموعة من الدراسات الفيلولوجية التاريخية أو المقارنة فى الانكليزية : Comparative Philology أو اذا عنى بها مظهرها التاريخي فقط : Historical grammar وكلاهما كان يرادف فى **ذلك العصر** (لا الآن) ما سموه بالـ Linguistics

---

(25) رأينا أن بعض علماء القرن الثامن عشر كانوا قد توفقوا الى اكتشاف القرابة بين الكثير من اللغات (أنظر مقالتنا السابقة ، اللسانيات ، العدد الثاني ، ص 70 – 71) ولكن القرن التاسع عشر هو الذي سيتم فيه الترتيب الدقيق والتصنيف الشامل لجميع اللغات المعروفة اذ ذاك (من وجهة نظر التاريخ بصفة خاصة) . فدرست – بعد التثبت من قرابتها – ومن أجل اثبات مراحل تطورها : اللغات المنتمية الى الفصيلة السامية (وضموا اليها الفصيلة الحامية فيما بعد) والفصيلة الاورالية والفصيلة الالطائية والفصيلة الصينية التبتية وفصائل اللغات الافريقية والامريكية الاصلية وغيرها (أنظر فيما يلي وصفنا لتصنيفهم اللغات البشرية) . وممن درس اللغات السامية من زاوية المقارنة التاريخية نذكر الانكليزي ورايت (W. Wright : 1890) والالمانيين : لندبرج (O.L. Lindberg : 1897) وتسيمفن (H. Zimmern : 1898) وأعظم هذه الدراسات حجما ودقة هو ما ألفه كارل بروكلمان : *Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen* (1908 – 1913) وتلاه بعض الباحثين فى القرن العشرين الا أنهم لم تبلغ مؤلفاتهم ما بلغه كتاب بروكلمان من الضبط والشمول . ورغم أنه قد مضى عليه وقت فانه يجدر أن ينقل الى العربية .

وكذلك هو الامر فى الفرنسية وغيرها من اللغات الاوربية (26) . كانت اللسانيات المقارنة قد عرفت خارج المانيا قبل ظهور هذه الحركة الا أن النحو المقارن للغات الهندية الاوربية كان مقصورا حقيقة على الالمان وبعض الدانماركيين (راسك وتومسان ومدفيك) حتى سنة 1866 ولكن هذه النزعة «التاريخية» (historiciste) ومبادئها الدقيقة الصارمة هي التي جعلت هذه المسالك الدراسية للغات وما امتازت به من مناهج، تروج وتذيع فى أكثر بلدان أوربا وكذلك فى الولايات المتحدة الامريكية (27) وانتصرت على جميع التقاليد الدراسية القديمة فى المستوى الجامعي أو — على الاقل — امتثلت وضمت اليها من هذه المناهج والمفاهيم التقليدية تلك التي لم تتعارض معها كما قلنا .

وفى تلك الآونة وبسبب تزايد اهتمام الباحثين اللغويين «التاريخيين» بالمظهر الصوتي للغات وضعت أسس الصوتيات التجريبية Experimental Phonetics فى أوربا والذي ساعد على انشاء هذه الصوتيات هو أمران : الاول التفات اللغويين الى ما ترجم من كتب الهنود فى تحليل الاصوات اللغوية واكتشافهم فيها المفاهيم الكثيرة التي لم يكن لهم عهد بها وكذلك ما نقل من كتب النحو والتجويد العربية (28) . والثاني هو اهتمام بعض الفيلولوجيين بالمخارج وكيفية حدوث الحروف . وأول هؤلاء بل واضع أسس التحليل الصوتي العلمي — وكان قد اطلع على أوصاف وتحليلات العرب — هو أ . بروكه (Ernst Brücke : 1819 — 1892) (29) ثم تلاه لبسيوس (Richard Lepsius

---

(26) وسمى بعض الاخوان هذا النوع من الدراسات « فقه اللغة » لسببين حسب ترجيحنا : أولا وجود هذه اللفظة عند قدماء العلماء العرب وثانيا استئناسه (لا شعوري من غير شك) لما يوجد من شبه صوتي بينها وبين الـ Philology أما وجه الخطأ فى ذلك : فقد أشرنا فيما سبق إلى المحتوى الحقيقي الذي كانت تحتوي عليه قديما ثم ان الفيلولوجية هي مفهوم غربي بل ومرحلة من مراحل تطورهم الثقافي .

(27) ظهر فى فرنسا أيضا ومنذ زمان ، كتاب « المختارات الشعرية الاصلية للتروبادور » (1816 — 1821) لرينوار (Raynouard : 1761 — 1836) وضع فى مقدمته بحثا فى النحو المقارن للغات المتفرعة عن اللاتينية . الا أن الكثير من الباحثين كانوا قد تتلمذوا على العلماء الالمان ، ونذكر منهم كاستون باري G. Paris (1839 — 1903) صاحب ديتس وويتني الامريكي الذي سنتكلم عنه فيما بعد ، وترجم كتاب بوب الى الفرنسية ميشيل بريال (Bréal : 1832 — 1915) فعرف بذلك مواطنيه النحو المقارن ومناهجه وتحمس لها أمثال ليتري (Littré) صاحب المعجم المشهور ودمرستيتير (A. Damersteter) وكان الفرنسيون قد أسسوا فى 1866 الجمعية اللغوية المشهورة (وهي موجودة الى الآن) : Société de Linguistique de Paris (وينص نظامها الداخلي « أنها لن تقبل الاستماع لأي عرض فى موضوع أصل اللغات ولا فى خلق لغة عالمية جديدة ») . وفى ايطاليا اهتم اللغوي اسكولي (Ascoli) (1829 — 1907) بالنحو المقارن بالمسائل التي أثارها النحاة المحدثون وله كتاب : *Corsi di Glottologia* (دروس فى علم اللسان ، 1870) .

(28) مثل ما نقله فالين الالماني فى مقالته : *Uber die Laute der Arabischen und ihre* (1858-1855, Z.D.M.G.). *Bezeichung*

(29) لـه كتاب : *Grundzügeder Physiologie und Systematik der Sprachlaute* (1856) (أصول فيزيولوجية أصوات اللغة) وله فى صوتيات العربية ونظريات نحاتها فيها : *Breitrage zur Lautlehre der Arabischen Sprache* مساهمة فى دراسة أصوات اللغة العربية (1860) .

: 1810 – 1884 (30) ثم ظهر فى سنة 1876 تحليل مستفيض عميق ألفه ادوارد سيفرس (Eduard Sievers : 1850 – 1932) وصار هذا الكتاب مرجعا لأغلب اللغويين حتى نهاية الربع الاول من القرن العشرين . أما واضع الصوتيات الآلية أو المخبرية الحقيقية فهو الفرنسي القس روسلو (l'abbé Rousselot : 1846 – 1926) وله فى ذلك كتاب : *Principes de phonétique expérimentale* باريس ، 1897 – 1908 فى مجلدين ونذكر أيضا من علماء الصوتيات الذين برزوا فى ذلك الوقت الباحث الانكليزي هنري سويت (Henry Sweet : 1850 – 1918) وله كتاب : *Handbook of Phonetics* (سنة 1877) وفلهام فيتور (W. Viëtor (1850 – 1918) وله كتاب : *Elemente der Phonetik* (سنة 1884) واللغوي الدانماركي المشهور (سنتكلم عنه فيما بعد) أوتويسبرسن (Otto Jespersen (1860-1943) (31) وهذا الباحث مع روسلو وبول باسي (P. Passy 1859 – 1940) أحد المتخصصين فى صوتيات اللغة الفرنسية هم الذين أسسوا « الجمعية الدولية للعلوم الصوتية » (32) .

بالرغم من كل هذا الفوز الباهر فان هذه النزعة قد عارضها علماء كثيرون (الا انهم لم يستطيعوا أبدا أن يقضوا على الاصول العلمية التي كانت فرضتها على الباحثين) . فان أكثر هؤلاء العلماء – وبعض المتفلسفين – كانوا ينتسبون الى تيارات جديدة نشأت فى نهاية القرن التاسع عشر وامتدت وقويت فى الربع الاول من القرن العشرين . فما هي هذه التيارات وما ذا عساها أن تنتقده فى مذاهب ونظريات أولئك النحاة المحدثين وخصوصا بعد أن برهنوا على نجاعة مناهجهم بما أنتجوه من الدراسات الرائعة وما أثاروه فى نفوس أتباعهم وأتباع أتباعهم من الغيرة الشديدة على تلك الآراء والمباديء ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه فى الفصل الآتي ان شاء الله .

سنتعرض ، قبل أن نختم كلامنا هذا ، لرجلين كان لهما أثر عميق فى تطور الفكر اللغوي الاوربي والامريكي . أما الاول فهو المفكر الالماني

---

(30) أما فيما يخص تشريح الحنجرة وكيفية خروج الصوت منها فقد اهتم بذلك المغني مانويل كارسيا (وهو أول من استعمل مرآة أطباء الاسنان لمشاهدة الاوتار الصوتية وكيفها وحسنها لذلك الغرض وسميت باسمه منذ ذلك الحين وتسمى أيضا : Laryngoscope = منظار الحنجرة أو المزوار) . وتابع ذلك الطبيب التشيكي تشيرماك (Czermak) وتأمل أيضا عمل صفاق الشجر Voile du palais (واللفظ العربي استعمله ابن سينا) فى تحقيق الغنة . أما فى الصوتيات الفيزيائية (فى علم الصوت) فبرز فيها الالمانيان هلمهولتس H. Helmholz(1821 – 1894) وهرمان L. Hermann المشهوران وخصوصا الاول منهما فقد اكتشف أسرار الصدى (الرنين) ومكوناته فى المصوتات وله :
(1862) *Lehre von den Tonempfindungen*
(31) وله كتاب باللغة الدانماركية : *Fonetik*
(1897 – 1899) وهو من الذين ختمت بهم الدراسة الصوتية التي ينتمي أسلوبها الى هذا النصف الثاني من القرن التاسع عشر (ونشر أيضا فى 1912 كتاب : *Lehrbuch der Phonetik* **بالالمانية) .**
(32) = *Association phonétique internationale* **فى عام 1886 . وما تزال تعمل الى الآن .**

فلهام فون هومبولت (W. Von. Humboldt 1767 – 1835) (33) الذي تعددت اشاراتنا اليه فى هذا المدخل . أما ذكرنا اياه فى نهاية هذا الفصل – مع أنه مات فى 1835 – فلان أفكاره ونظرياته لم تكن من القرن التاسع عشر بل كانت معزولة غير منسجمة بأفكار معاصريه ومن جاء بعدهم حتى القرن العشرين وتعد الآن من البوادر التي سبقت أوانها لرجوع أمثال تشومسكي والكثير من اللغويين المعاصرين اليها . كان هذا الرجل من مخضرمي القرنين الثامن والتاسع عشر ولذلك جمع بين النزعات المختلفة ووفق بينها الى حد بعيد : تتراءى فى أفكاره مذاهب الفلاسفة الذين اهتموا بماهية الكلام واللغة بالنسبة للفكر والثقافة وأصل الانسان ومآله بصفة عامة مثل كوندياك وتلميذه كورت دي جيبلين Court de Gébelin (1725 – 1784) والكاتبين الالمانيين هامان (J.-G. Hamann: 1730 – 1788) وهردير السالف الذكر (J.-G. Von Herder : 1744 – 1803) اللذين كانا نوها بما جاء به « هرماس » هاريس . وأكثر آراء هومبولت فى هذا الموضوع أخذها من نظريات كوندياك وهاريس الا انها صارت عنده أكثر وأوسع آفاقا وبذلك تعتبر أعماله فى غالبها – **امتدادا لتلك** المدرسة اللغوية النظرية (اللسانيات العامة) التي ظهرت فى أوربا فى القرن الثالث عشر . فأغنى محتواها سانكتيوس كما قلنا وهذان اللغويان الفرنسي والانكليزي . وكان هومبولت آخر من مثل هذه النزعة الفكرية العلمية (مع دي ساسي) الى أن ظهر سوسور . ومع ذلك فانه هو الذي شجع أيما تشجيع التيارات الجديدة التي بدأت تظهر فى نهاية القرن الثامن عشر وذلك مثل الميل الى الدراسات المقارنة التاريخية (34) مع ما كان يصحبه من النزعات الرومانسية ولعل سبب اقباله على هذه التيارات وارتياحه لها (خلاف دي ساسي) هو عاطفته الرومانسية التي كانت قد عمت أكثر بلدان أوربا فى ذلك الوقت وكانت عنده عبارة عن حنين عميق موجه نحو الماضي وتطلع شديد الى مجاهيله وغوامضه وبصفة خاصة مسائل أصل الانسان وأصل لغته وسر وجود الفكر مع اللغة عند الآدميين وأصل الثقافات الانسانية وغير ذلك من المشاكل الكبرى العويصة . وقد حاول أن يحل كل هذه المشاكل بالنظر والتأمل الا أنه كان يؤمن بضرورة البحث الاستقرائي بتتبع النصوص القديمة والحديثة ويدرس اللغات التي كتبت بها واللغات الحية أيضا ومن ثم الثقافات التي كانت تنقلها هذه الالسنة .

(33) شغل هومبولت مناصب سياسية وديبلوماسية كثيرة : كان سفيرا لبروسيا فى روما ثم فى فينا ثم لندن ثم مديرا عاما للتعليم – وهو الذي اسس جامعة برلين فى (1810) وصار وزيرا فى 1818 . وكان واسع الاطلاع ، عجيب الذكاء ، عميق التفكير ودرس دراسة علمية ونظرية عددا كبيرا من اللغات القديمة والحديثة مثل اليونانية واللاتينية والسنسكريتية وبعض اللغات السامية ولغة البشكنس والمجرية والصينية والتتارية واليابانية والبرمانية والكافية (لهجة جاوة) وحتى الكثير من لغات الهنود الحمر الامريكيين . وألف كتبا قيمة ، وأوصافا ودراسات مقارنة لاكثر هذه اللغات . وجمعت هذه المؤلفات فى نشرة شاملة بدأت تصدر فى برلين فى سنة 1903 وانتهت فى 1936 تحت عنوان *Wilhelm von Humboldts Werke* فى 17 مجلدا . وترجم بعضها الى عدة لغات .

(34) فقد ساعد بوب مساعدة كبيرة (كتعيينه اياه أستاذا فى جامعة برلين فى 1821) .

فهذا يميزه تمييزا فاصلا من الفلاسفة التأمليين ويجعله فى أعلى مراتب الاجتهاد العلمي الحقيقي . أما أفكاره التي أصبحت الآن مصدرا ومرجعا للسانيات الحديثة فلابد أن نشير الى بعضها ففي نظرية فون هومبولت :

ـ اللغـة (أو كل نظام من جنسها يمكن أن يقوم مقامها) هي شرط لازم لوجود الفكر . لأنها وسيلة من وسائل تحقيقه فبها يستحكم وبها تصير الهواجس وضباب المعاني والمقاصد أفكارا واضحة ، محصلة محددة . يقول : « ان عملية الكلام تنحصر كلها فى منحها للفكر مادة يعتمد عليها ، بازالتها الابهام بفضل ما تتركه الاصوات المقطعة من أثر ثابت ، باجبارهـا الذهن على أن تنتظم جميع معانيه بانتظام الالفاظ المتعاقبة » **(رسالة الى ريموسا** ، بوردو ، 86) (35) . وبناء على هذا فان هومبولت يرى أن للانسان قـوة باطنيـة (eine innere Kraft) فطر عليها (دون الحيوانات الاخرى) تجعله قادرا على التفكير وعلى التعبير بالكلام فى الوقت نفسه . فالانسان واللغة خرجا الى الوجود معا .

ـ بما أن مهمة اللغة هي مساعدة الذهن على حصر المعاني وتوضيحها وبما أن المعاني لا حصر لها (لا نهاية لها) فيلزم أن تستعمل اللغة وسائل محصـورة العـدد استعمـالا غير محصـور ولـم يمكـن هـذا الا لأن الـذي يحـدث الفكـر واللغـة هـو نشـاط واحـد (أنظـر *Uber die Vershiedenheit des Menschlichen Sprachblaues* برلـين ، 1836 ص 122)(وقارن بما قلناه فى الهامش 106 ص 69 من مقالتنا السابقة) .

ـ ولهذا فليس الكلام فى حد ذاته الشيء المحدث بالحدث (36) بل حدثا أي فعلا ونشاطا ، يقول « ان الكلام ، فى الحقيقة ، هو شيء يمر على الدوام بل وفى كل لحظة .. فالكلام ليس فى ذاته ما يحدثه الحدث Ergon (أثر فعل) بل حدث Energeia = النشـاط (الفعل نفسه) وعلى هذا فان تحـديده الحقيقـي لا يمكـن أن يبنـى الا على مفهـوم **التـوليد** Erzeugue (37) . وذلك لانه يمثـل مجهـود الذهـن المستمـر لجعـل

---

(35) جعل علماء العصر الحاضر من هذه الفكرة مبدأ وسموه : مبدأ اشتراط اللغـة (Principe du déterminisme linguistique) **ولا يعني هومبولت ولا من تبعـه اليـوم أن اللغة مرآة صادقة للعقل (مثل ما كان يراه أرسطو) بل هي « العضو الذي يصوغ الفكر » ولا يصاغ عليه لانها ليست قالبا جامدا بل نشاطا وعملا كما سيشير الى ذلك فيما يلي .**

(36) أي : مفعول الفعل واثره فنظرته الى اللغة هي نظرة حركية لا سكونية .

(37) أو التفريع . وهذا يذكرنا بالمناقشات التي دارت قديما بين المعتزلة وغيرهم من المتكلمين فى موضوع ماهية الكلام . والتوليد هو من اصطلاحهم . وحدده الجرجاني هكذا : « هو أن يحصل الفعل عن فاعله بتوسط فعل آخر كحركة المفتاح بحركة اليد » (التعريفات : القاهرة 1306 ، 31) . والمقصود من كلام هومبولت هو الحث على أن نبحث عن الفعل الذهني الفيزيولوجي الذي يحصل بتوسطه الكلام . وللنحاة مفهوم قريب من هذا الا أنه رياضي ومجرد من النظرة الفلسفية وهو مفهوم التفريع (تحصيل الفرع ببنائه على الاصل) . وقد بين ديكارت كما قلنا ماهيته كمفهوم رياضي . والكلمة اللاتينية التي استعملها للدلالة عليـه هـي كلمـة : ingenio أو genero (= كون ، ولد) engendrer to generate = générer, وهذه الالفاظ الاخيرة يستعملها الآن اصحاب النحو التفريعي .

الصوت المقطع قادرا على أن يكون عبارة للمعاني ... ان وصفنا للالسنة بأنها نشاط للذهن Energeia هو عبارة صحيحة ومناسبة لأن الذهن فى كينونته هو فعل وتحصيل .. ويفضي بنا التحليل الذي نجريه على بناء الكلام الى التفطن بأن اللسان هو مسلك **اجرائي** (عمل) يعتمد على بعض الوسائل لتحقيق بعض الاغراض ... ان هذا النشاط هو نشاط دائم ومطرد فى غالب أحواله . وهدفه الوحيد هو الافهام ويحصل هذا الافهام بالتبادل (بالتفاهم) لأن اللغة هي وسيلة التبليغ » (**آثار فون هومبولت** ، ط . برلين 1903 ، 7 ، 45) .

ـ للغة نظام عضوي وبنية(Sprachblau)وصورة باطنية(Innere Sprachform) غير الصورة الظاهرة فى الكلام . يقول : « ان اللغة جهاز عضوي ويجب أن يعالج على هذا الاساس . فالقاعدة الاولى هي أن تدرس كل لغة فيما تختص به من نظام باطني وأن ينظر فى كل المناسبات البنوية الموجودة فيها وترتب ترتيبا شاملا حتى يتبين فيها كيف تتساوق المعاني فى الالفاظ ، والى أي حد يبلغ عدد المدلولات المعبر عنها وما هو جوهر دلالتها وهل تميل كثيرا أو قليلا الى التوسع فيها والتهذيب . ان هذه الدراسات الجزئية للغات المعينة اذا اعتبرناها جملة فهي ضرورية . ولكنها لا تغنينا عن الدراسة المقارنة لبعض الظواهر (كالفعل : Verb) من خلال جميع « اللغات » (38) (نفس المصدر 4 ـ 10) .

ـ ليست اللغة رسما مطابقا للواقع ولذلك فان لكل شعب نظرة خاصة الى الواقع تتراءى فى لغته . والصورة الباطنية للغة هي التي تدل على شخصية الشعب . يقول : « ان المميزات التي تمتاز بها أمة وما بلغته لغتها من النمو هما أمران جد متلازمين بحيث يمكن أن نستدل بأحدهما على الآخر . وذلك لأن العقل واللغة لا يحدثان ولا يتشكلان الا بالاشكال التي يمكن أن تنسجم . ونستطيع أن ننظر الى اللغة على أنها تعبير خارجي لروح الامم » (لذهنيتهم) (**فى اللغة الكافية**، دمارستاد، 1949، 41) (39).

ان غالب هذه الافكار قد أخذها هومبولت من الذين ذكرناهم من اللغويين والمفكرين كما قلنا أو أخذ بذرتها على الاصح لأنه وسع دائرتها المفهومية وأثراها وبلغ النهاية فى تحليلها أو الاستدلال على صحتها . ورغم النفوذ والاشعاع وقوة التأثير التي حظي بها فى زمانه عند مواطنيه فان أكثر من

---

(38) ليس المقصود بالمقارنة هنا التاريخية بل المقارنة بين أجناس وأنواع اللغات بدون التفات الى قرابتها الموروثة .

(39) هذه الفكرة تسمى الآن بمبدأ النسبية اللغوية(Principe de la relativité linguistique) **وهي مبنية على هذه الملاحظة لهومبولت : « ليس اللفظ نسخة للشيء (المدلول عليه) بل للصورة التي أثارها هذا الشيء فى النفس » (أنظر :** *Uber die Verschiedenhait des Menschlichen Sprachblaues* **نفس الطبعة، 74) . قارن بما قاله العلماء العرب : « أن اطلاق اللفظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية فدل على أن الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي » (المزهر ، 1 ، 42) وأخذ هذه الفكرة منهم المدرسيون فى القرن الثالث عشر (أنظر مقالتنا السابقة ، ص 59) .**

جاء بعده لم يفهموا جيدا مقاصده (وحتى فى السنوات الاخيرة كانت تعتبر مؤلفاته جد غامضة) لأنه لم يستطع أي واحد (الا تمليذه شتاينتهال J. Steinthal : 1823 — 1899) أن يقدر أهمية اللسانيات النظرية والمكانة الذي ستحتلها فى القرن العشرين . ثم انه صعب عليهم أن يحلوه محله من التيارات المعروفة اذ ذاك : فلا هو فيلسوف اللغة ولا هو الفيلولوجي التقليدي ولا هو اللغوي بالمعنى المحدث آنذاك أي المقارن بين اللغات الباحث عن قرابتها . بل هو كل ذلك فى آن واحد وفوق كل شيء فهو المنظر لجميع الآراء اللغوية التي أظهرها مفكرو القرن الثامن عشر . أما عدم فهم اللغويين الذين تلوه لأقواله (لمدة قرن !) فلا نعجب من ذلك اذ كيف يستطيع أن يدرك كلام هومبولت من قد اقتنع بعدم وجود طريقة علمية صحيحة الا الطريقة التاريخية ! لقد لهج الناس قبل هومبولت وكوندياك بأقوال أرسطو المنطقية فغلبوها على كل النظرات المنطقية الاخرى وغزت بذلك جميع الدراسات اللغوية . ثم لهج الناس بعد رفضهم للمزج بين منطق أرسطو بمفاهيم اللغة بالدراسة الفيلولوجية المقارنة ثم الدراسة التطورية للغة فغالوا فى اعتقاداتهم حتى نفوا كل الطرق التي لا تعتمد أساسا على مفهوم التطور **وحده** . وذلك لظنهم بأن الدراسة للغات لابد أن تكون **اما معيارية لغوية** تفرض على الناس بعض النماذج فى تأدية الكلام تحكما **أو معيارية منطقية** (على أساس أن اللغة هي انعكاس **سلبي** للفكر) فتفرض النماذج التي استخرجها أرسطو وذلك مثل بوروايال وهذا ما **لا يمكن أن يعتبر من العلم فى شيء** ، واما **تاريخية بحتة** (على الطريقة التي وصفناها) فأيقنوا حينئذ بأنها المنهج العلمي الوحيد الذي يمكن أن يطبق على اللغات . ولم يتفطنوا الى وجود نظرات أخرى غير هاتين بل نظرات علمية دقيقة كالتي أسست عليها اللسانيات البنوية والنحو التفريعي الحديث وكلاهما سيأخذ كثيرا من أقوال هومبولت وسينتبه العلماء فى زماننا أن المنطق الذي تعتمد عليه جميع العلوم الدقيقة ليس منطق أرسطو الذي يحصل الحاصل بل هو منطق آخر استخرجوه من الاستدلالات الرياضية التي يشترك فيها جميع البشر . وهذا لا يعني طبعا أن النظرة التطورية لا أساس لها . بلى قد اعترف كل العلماء بصحتها وفضلها الكبير الا انها ليست الا وجهة نظر بل وتحتاج أن تدخل عليها مفاهيم أخرى حتى تقوم بمهمتها كما ينبغي .

أما الباحث الثاني الذي كان قد شذت أفكاره عن أغراض معاصريه (فى القرن التاسع عشر) فهو اللغوي الامريكي وليام د . ويتني William) Whitney. D : 1827 - 1894)(40) لم يكن ويتني مثل هومبولت فى عمق التفكير وسعة الاطلاع فالفرق بينهما من هذه الحيثية كبير . غير أننا نقدر أهميته بالنسبة للسانيات البنوية الحديثة لأنه ألهم بما نشره من آراء عملاقين من

---

(40) تتلمذ على بوب (ودرس فى ألمانيا من 1850 الى 1853) . وتعين أستاذا للسنسكريتية فى مدينة يال فى الولايات المتحدة وحصل على كرسي النحو المقارن فى 1869 . واهتم أيضا بدراسة لغات أهالي أمريكا وأرشد الضابط الامريكي بويل عندما شرع فى جمع كلامهم وتصنيف لغاتهم ونسخها . وأشهر مؤلفاته هو : *The Life and Growth of Language* New-York and London, 1875 **(حياة اللغة ونموها) ،**

عمالقة هذه اللسانيات وهما فردينان دي سوسور السويسري وبلومفيلد الامريكي . فهو أيضا من الذين أظهروا الافكار السابقة لأوانها . الا أن هذه الافكار وان كانت جديدة بالنسبة لمعاصريه الذين لم يطلعوا على التراث الثقافي العالمي فهي مثل أكثر آراء هومبولت غير جديدة في جوهرها بالاضافة الى هذا التراث . ولا ننس أن هذا اللغوي قد عاش في عصر تغلبت فيه النزعة التاريخية على جميع النزعات الاخرى ولذلك تعتبر طارئة بل شاذة وسابقة لأوانها .

ان الذي دفع ويتني على اظهار هذه الآراء التي عارض بها معاصريه هو قبل كل شيء شعوره بالمبالغات والانحرافات التي لاحظها في مذاهبهم أو ما كان يعتقده انحرافا عن « العقيدة السليمة » . وذلك مثل ما رآه عند شلايشر (واتباعه) من الغلو في اعتقاده بأن اللغة ظاهرة من نوع الظواهر الطبيعية البيولوجية واعطائه ، بالتالي ، لعلم اللسان حكم العلوم الطبيعية بدون قيد ولا شرط . وكذلك تفخيم شتاينتهال (41) لمذهب أستاذه والاعتقاد المطلق أيضا بأن تطور اللغة انما هو ناتج عن تطور وتحول لذهنية الامة فقط (42) وبالتالي أنها صادرة كلها عن تلك القوة النفسانية الجماعية وغير ذلك مما لم يدركه جيدا أو ما كان مبالغة وتعسفا بينا ورأينا في موقفه ازاء الالمان نوعا من التحيز ضدهم (43) ويظهر ذلك بوضوح في كلامه هذا : « ان هذا العيب هو نوعا ما ، ميزة للالمان . فانه ليدهشنا حقيقة أن نرى أكفأ الفيزيولوجيين في هذه الامة يخطئون في التمييز البسيط الظاهر البداهة بين صوت «س» و صوت «ز» ، وبين « ف » و « پ » و « ب » و « پ » (44) هذا ولم يتحرج أبدا في الهجوم العنيف على أكبر علمائهم وبالخصوص ماكس مولر (45) (ولم يكن مخطئا فيما يخص هذا الاخير نظرا لما أظهر في كلامه من التفكير السطحي المموه) .

أما اسهامه في البحث اللساني وأصالته بالنسبة لمعاصريه فتنحصر في بعض الآراء نذكر منها :

ـ فكرة التواطؤ الاجتماعي في تفسير كيان اللغة وهو ما يسميه ، *Institution* (46) أي ما ينشئه البشر لصالح المجتمع وبسببه (في اصطلاح اللغويين العرب : **وضع** من أوضاع البشر) وعلى هذا فدراسة

---

(41) أنظر ما كتبه عنه في مقالة : *Steinthal and the Psychological Theory of Language, Oriental and Linguistic Studies*, New-York, 1874.

(42) أي بدون أن تؤثر فيها الحوادث مباشرة . وتطور اللغة هو عند ويتني ، على عكس ذلك ، نتيجة لاحداث الزمان مباشرة وظاهرة تاريخية بحتة .

(43) مع أنه تعلم وأخذ منهم أشياء كثيرة .

(44) أنظر مقالته : *On Lepsius Standard Alphabe.* في *Journal of the Oriental Society* : New-Haven 1862 ، ص 313 . يريد ويتني أنهم لم ينتبهوا الى أن الفرق بين هذه الاصوات هو في وجود وعدم وجود اهتزازات من الاوتار الصوتية .

(45) في كتاب : *Max Müller and the Science of Language* نيويورك ، 1892 .

(46) أنظر : *Life and Growth* (الطبعة الاولى) ، ص 48 ، 280 ، 309 .

اللغة ليست فرعا من الطبيعيات ولكن علما من علوم الانسان له موضوعه الخاص والمناهج التي تناسبه .

ـ ومن ثم فالادلة اللغوية أي الرموز التي تتكون منها اللغة هي علامات يتفق عليها الناطقون بها (Conventional) عند العرب : دلالة اللغة وضعية وأدلتها أشياء يتواضع عليها) . وهذا هو الذي يميز عنده الانسان من الحيوان وهو أيضا شرط تحول اللغات من حالة الى أخرى عبر الزمان وبالتالي اختلافها الاختلاف البين . يقول : « ان في اتصاف العلامة اللغوية المقطعة بأنها علامةمتفق عليها (= متواضع عليها) وأنهاليست مرتبطة بالمفهوم الا ارتباط المصاحبة الذهنية (وجود الدليل مع مدلوله معا في الذهن فقط) ، سر امكانية التحولات اللفظية والمعنوية ، ولو كان هذا الارتباط طبيعيا وباطنيا ولازما لوجب أن يحدث كل تحول يصيب المفهوم تحولا مماثلا في دليله » (47) . فاللغة هي قبل كل شيء وسيلة التبليغ والتخاطب بين الناس اذ « الالفاظ بالنسبة الى ذهن الانسان كالادوات بالنسبة الى يديه » ولذلك « فليست قوة من قوى النفس ولا هي فعل الفكر المباشر بل أثر غير مباشر لهذا الفكر : انها آلة » (48) .

ـ ويؤكد من جهة ثانية أن هذه الآلة ليست منحصرة في الصوت المقطع وحده لان هذا العنصر هو من بعض الوجوه مادي وفيزيائي بل الصوت الدال على معنى من معاني الفكر . فاللغة هي نظام System من الاصوات ذو مضمون معقول . وهي تشبه بذلك ـ أي بكونها نظاما ـ الاجسام المنتظمة الاجزاء ذوات البنية Structure المعينة (50) .

وويتني هو أول من حاول أن يحدد مضمون علم اللسان بحصره هذا المضمون في المظهر اللغوي المحض وهو الوضع والبنية والصورة . أما غير هذا المظهر فليس عنده من اختصاص اللغوي بل من اختصاص الفيزيائي (علم الصوت) والفيزيولوجي (علم وظائف الاعضاء) والنفساني (علم النفس اللغوي الآن) والفيلولوجي (دراسة النصوص القديمة) والاتنولوجي (دراسة خصائص الشعوب والجماعات) (51) .

كانت هذه الافكار في ابان ظهورها ـ أي بعد 1867 ـ جديدة جدا كما قلنا غير مأنوسة، خصوصا في ذلك الوقت الذي استولى فيه التيار البيولوجي والداروينى على جميع الدراسات العلمية وحجب بذلك بل أنسى الناس

(47) نفس المصدر ، ص 48 .

(48) بذا يرد ويتني على فكرة هومبولت في الـ innere Kraft وكان ذلك من سوء حظ اللسانيات البنوية لأن العالمين اللذين أسسلها وهما سوسور وبلومفليد سيأخذان بقول ويتني هذا وسيجعلان الكلام سلوكيا آليا محضا متجاهلين في ذلك جانبه الخلاق (أنظر الهامش 104 فيما يلي) .

(50) نفس المصدر ، ص 49 ـ 50 .

(51) هذه نظرة ـ على كل حال ـ ضيقة وملبسة كما سنراه (لئن كان علم اللسان في ذاته مستقلا عن كل هذه العلوم فانه لا يتصور أن يستغني عما تثبته هذه العلوم فيما له علاقة باللسان والا جمد وتحجر في برجه العاجي) .

تماما كل النظريات والآراء التي ظهرت على ممر الزمان ومنذ عهد الفلسفة اليونانية فى موضوع اللسان البشري . فكل ما جاء به ويتني فى مسألة التواضع اللغوي وأن اللغة نتيجة للاجتماع والعمران واعتباطية الدليل اللغوي وغير ذلك مما لم نذكره فهو قديم وقديم جدا (ونستثني من ذلك حصره ــ لأول مرة ــ لموضوع علم اللسان) الا أنه هو الذي أحياه فى البلدان الغربية وسهمه فى هذا البعث ليس بهين لأن علماء القرن العشرين سيبنون على هذه الافكار نظريات ومناهج رائعة عظيمة .

النصف الاول من القرن العشرين : عصر البنية والدراسة البنوية

ــ انتقاد المفكرين لمواقف التاريخيين المتطرفة .

لقد عرفنا بما سبق أن مفهوم الـ Linguistics كعلم موضوعي للسان البشري (52) كان ينطبق فقط على مناهج المقارنة والتتبع التاريخي لاطوار اللغات ولم يعرف لهذه اللفظة مدلول آخر غيره (53) وان الفيلولوجية القديمة من أنواع الذي عرف عند النحاة الالمان (مثل فولف) أدمجت فى هذا العلم المحدث فصارت لفظة « الفيلولوجية المقارنة أو التاريخية » مرادفة لكلمة Linguistics (54) . ولكن هذا لم يرض به فى آخر الامر اللغويون الذين ولدوا فى نهاية هذا العصر . والذي أثار استيائهم بصفة خاصة هو المواقف المتطرفة التي اتخذها منظرو هذا العلم المحدث فى النصف الثاني من هذا القرن . فانهم كانوا قد جمدوا أصولها النظرية والمنهجية فذهب عنها ما كانت تتصف به من المرونة والقابلية للتكيف فصارت بعدهم مباديء مطلقة غير مقيدة بواقع البحث وطوارئه . فمن ذلك المبدأ القاضي باطراد القوانين الصوتية التي استنبطوها اطرادا لا يتخلف أبدا . ولو قالوا بأن البحث العلمي المستمر هو الذي يحصر هذا الاطراد شيئا فشيئا وأنها فى الواقع قوانين « أكثرية » ــ على حد تعبير العلماء العرب ــ عوض أن يجزموا

---

(52) ظهر هذا اللفظ أول ما ظهر فى المانيا (Linguistik لكن لفظ Sprachwissenschaft هو أقدم منه وأكثر استعمالا) ثم استعمل فى فرنسا ابتداء من 1826 وفى انكلتيرا ابتداء من 1855 .

(53) فكل دراسة غير معيارية لم تعتمد على التتبع التاريخي كان يسميها العلماء قبل سوسور وميي اما Grammaire Générale ــ وعند الانكليز : Universal Grammar أو Philosophical grammar ــ واما Science of Language (أو Theorie of Language) وكانت تتعرض للظواهر اللغوية العامة مثل الـ Linguistics الا أن اكثرها كانت تعالجها بشيء قليل أو كثير من النظر الفلسفي .

(54) نذكر بهذا الصدد مثال الجامعات الفرنسية : فالى غاية 1968 كانت غالب الكراسي المخصصة لعلم اللسان الفرنسي واللاتيني واليوناني (وحتى اللغات الاخرى) تلقب بكرسي الفيلولوجية الفرنسية أو الكلاسيكية أو الانكليزية ، وبين عشية وضحاها صارت تلقب بكرسي علم اللسان الفرنسي (بل بقسم الـ Linguistique française لان الكراسي الغيت بعد أن تزعزعت الجامعة الفرنسية بحوادث مايو 1968) .

بأن الذي توصلوا اليه لا يمكن أن يشذ عنه شيء لأصابوا فى ذلك كما أصاب من سبقهم (وسنرى أن البحوث اللهجية فى عين المكان هي التي أضعفت هذا القول) . وفوق هذا كله فان تصلب الفيلولوجية المحدثة (هذه الـ Linguistics نفسها) وعدم تنازل أصحابها عن قولهم بأن « لا علم الا فى المنهج التاريخي » (55) هو الذي أثار بصفة خاصة انزعاج الباحثين الشبان فى هذا القرن .

ان مصدر الضربات الاولى التي أوهنت هذا التصلب المذهبي وحملت اللغويين التاريخيين على أن يلطفوا أقوالهم ويقيدوها بما يجيء به البحث الاستقرائي المتواصل هي البحوث اللغوية الجغرافية ونعني بذلك الدراسات التي موضوعها اللغات المنطوق بها بالفعل ــ لهجات كانت أم لغات قومية ــ وغايتها هو الوصف لاستعمال عناصرها مع اثبات توزعها الجغرافي وامتداد رقعتها ومدى تداخلها وكل ذلك بالاعتماد على التحريات الشفاهية والكتابية فى عين المكان (56) . ولم يكن هذا النوع من البحوث مجهولا تماما قبل ذلك فقد رأينا الكثير من العلماء يهتمون بوصف اللهجات (57) ولكن الجديد فى هذا هو الالتفات الى المنطوق منها ، (58) لا الزائل أو القديم وخصوصا الاهتمام بالمقياس الجغرافي . وهذا الذي سبب انفصال الفيلولوجية من الـ Linguistics بصفة نهائية لأن موضوع الفيلولوجية هو النصوص القديمة . فكيف يا ترى أوهنت هذه البحوث صلابة « التاريخيين » ؟ أوهنتها بما بينته لهم من اختلاف شديد بين العناصر اللهجية وعدم خضوع هذه الاشياء المشاهدة بالحس لقوانينهم . والغريب أن الشخص الذي أحدث هذه البحوث ونظم أول تحقيق لهجي هو لغوي ألماني (اسمه J. Wenker) من أتباع التاريخيين كان يتمنى أن يبرهن بذلك على صحة القوانين التطورية وحتميتها : (ووقع ذلك فى نفس السنة ــ أي فى 1876 التي نشر فيها لسكيان آراءه فى الحتمية) . فكانت خيبة مذهلة الا أن ضآلة وسائله فى أول الامر وتأخر نشر خرائطه (فى 1881) لم تساعده على التأثير فى آراء النحاة المحدثين فلم يحد المتطرفون منهم عما رسموه من حتمية قوانينهم . ثم وسع فينكير تحرياته الى كل الأقاليم الالمانية فحصل على 44251 جواب لمجموع أسئلته ولكن لم ينشر هذا البحث الا فى سنة 1926 (59). واتبعت هذه الطرق فى فرنسا فوضع أحد اللغويين : جول جيلييرون (J. Gilliéron 1854 ــ 1926) مستنطقا (بفتح الطاء : مجموعة من الاسئلة تهيأ سلفا

---

(55) ان المعمرين من اللغويين الغربيين تمسكوا بهذا القول الى ما بعد 1950 ! وأغلب هؤلاء هم من الذين تتلمذوا على كبار التاريخيين ولم يحظوا بتكوين لغوي آخر غير ما تلقوه عنهم .

(56) سنتكلم عن هذه المناهج بالتفصيل عند تحليلنا لمحتوى اللسانيات الحديثة المنهجي .

(57) كان للعرب فى ذلك فضل السبق . انظر كتابنا فى علم العربية وعلم اللسان العام .

(58) كان أصحاب المقارنة ــ وكذلك النحاة المعياريون فى أوربا ــ لا يلتفتون الا الى اللغة المكتوبة وخصوصا القديمة منها ويمتنعون من النظر فى اللهجات المنطوقة احتقارا منهم لها . فانعكس الامر بعد ظهور الجغرافية اللغوية والنزعة الوصفية فاحتقرت اللغة المكتوبة وخصوصا لغة الثقافة بدعوى أن اللهجات هي لغات حية تلقائية (كأن لغة الثقافة ليس فيها حياة ونمو !) فرجعوا عن انحراف الى انحراف آخر .

(59) بعنوان : *Deutcher Sprachatlas*

للحصول على كيفيات أداء اللغة (Questionnaire d'enquête linguistique) يتألف من 1500 سؤال وكلف أحد أعوانه باستنطاق عدد من الاهالي يتوزعون على 630 منزلة أو منطقة جغرافية معينة . ثم وضع الاجوبة فى خرائط حتى تظهر مواقع تلك الكيفيات وتداخلها (60) . وتبين هو أيضا أن الاطراد المطلق الذي كان يصف به النحاة المحدثون قوانينهم الصوتية وفيما يخص الفرنسية ولهجاتها غير حاصل ولا محقق . وبعد ذلك أخذ ينتقد انتقادا عنيفا نظرياتهم ومناهجهم مدعيا بطلانها على الاطلاق ، فهذه طبيعة كل الردود الفعلية لأنها لا تخلو أبدا من العاطفة . وبذلك حاول هو وزملاؤه وأتباعه أن ينقضوا لا صيغ القوانين التي وضعوها فقط بل حتى مفهوم القانون نفسه !! وزعموا أن لكل لفظة تاريخا وأن لكل عنصر لغوي تطورا ينفرد به هو وحده . وهذا منتهى ما يمكن أن يصل اليه غرور التشكك اذ بافقادنا العلم مفهوم الاطراد والقانون المستمر نمحي فى نفس الوقت امكانية العلم نفسه ونستبدل بمعناه ومغزاه الحقيقي معنى آخر ينحصر فى الحفظ والرواية وجمع الشواهد والنظر فى جميع الظواهر نظرة مجزئة « ذرية » كأنها أشياء يستقل بعضها عن بعض تماما . وهيهات أن تكون هكذا فى الواقع المحسوس . والذي أصاب فيه هؤلاء اللغويون اللهجيون هو انتقادهم لقوانين التاريخيين ورفضهم ما أدعوه لها من حتمية بشاهد الحس ولكن هذا لا يجوز لهم أن ينفوا وجود علاقات مستمرة بين الاحداث اللغوية فان عجز النحاة المحدثون عن حصر جميع العوامل والظروف التي تتحقق بها وفيها اكثر القوانين فهذا ليس معناه أن البحث عن كل هذه الظروف قد انتهى وانقضى وأكبر شاهد على ذلك هو استمرار هذا البحث ونجاحه الى يومنا هذا (الا أن المناهج صارت طبعا ألطف وأدق وانجع) (61) . وبصدد الكلام عن المناهج فان الفضل ــ الكبير ــ الذي يجب أن نعترف به لجغرافية اللغة واللهجات هو أنها حملت جميع الباحثين على الالمام بموضوع بحثهم الماما أكبر ودفعتهم على عدم التهاون بما قد يظنون أنه خارج عن مجال بحوثهم أو بما يطرأ من جديد المفاهيم التي ربما قلبت جميع الاوضاع التي تبنى عليها النظريات . وبهذا فقد زادتهم تحفظا وتحرجا وأبعدتهم عن النظر الى الشيء من زاوية واحدة .

واتفق أن ظهر فى تلك الآونة تيار فلسفي جارف مضاد لنزعة الايجابية والطبيعية خاصة (Naturalisme) التي سادت الى بداية القرن العشرين (الناشئة من تأثر علوم الانسان بالطبيعيات) . ودعا أصحاب هذا التيار الى البحث عن كوامن الامور غير المادية وأن يتجاوز ظاهرها . وأكدوا أن للانسان قدرة خلاقة لا يمكن مشاهدتها مباشرة وأن له لأجل ذلك قوى لا شعورية

---

(60) ونشر هذا العمل باسم أطلس فرنسا اللغوي *Atlas linguistique de la France* باريس 1906 ــ 1910 .

(61) وبالفعل راجع العلماء قوانين النحاة المحدثين فادخلوا عليها تعديلات بتوسيع مضمونها واعتبار ما لم يعتبروه فيها ، كل هذا على ضوء ما جاءت به جغرافية اللغة ثم البنوية الحديثة وغيرها .

يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار (62) . وكل ذلك كان له طبعا تأثير في علم اللسان وحاله في ذلك كحال سائر العلوم الانسانية . والى هذه النزعة المثالية (Idéalisme) ينتمي اللغوي الايطالي كروتشي (B. Croce 1866 — 1952) . فقد هجم على اللغويين الذين سبقوه (أصحاب المحدثين) هجوما شديدا وحاول أن يبني نظرية جديدة . ففي سنة 1900 نشر كتابا أسماه *Estetica como scienza dell' espressione e linguistica generale* « الجماليات (يريد الدراسة العلمية للفن) كعلم للتعبير بالاضافة الى اللسانيات العامة » يمزج فيه بين الاعتبارات الجمالية والمفاهيم اللسانية بل يجعلها شيئا واحدا ! فالمهم عنده هو التعبير أي اظهار الخوالج النفسية باللفظ . ويمكن أن نصل الى كنه هذه الخوالج بدراسة اللفظ ويعني بذلك الصياغة التي ينشئها المتكلم عندما يصوغ أغراضه وحالاته النفسية بالعبارات الصوتية . فان هذا النظم الذي يشاهده السامع هو ما يختص به هذا الكلام لا غيره (63) . ولهذا ينبغي أن نفسر الظواهر اللغوية وتطورها انطلاقا من الفرد نفسه أي باعتبار شخصيته وذهنيته — لا من المادة التي صيغ عليها هذا الشخص وكلامه (64) . وتبعه في ذلك اللغوي الالماني كارل فوسلير (K Vossler : 1872 — 1945) (65) فقويت به النزعة المثالية وعلا شأنها في أوساط اللغويين لأنه نظم أفكار كروتشي وأدمجها في نظرية

(62) اقدم هؤلاء الفلاسفة هو فيندلباند (Windelband : 1848 — 1915) ثم تلاه أكلسيوس مينونج (A. Meinung : 1853 — 1920) وريكرت (Rickert : 1863 — 1936) وأعظمهم وأجلهم تاثيرا هو — بلا منازع — هنري برجسون (H. Bergson : 1859 — 1941) (وكذلك واضع التحليل النفساني فرويد (Freud) صاحب النظريات المشهورة في اللاشعور) . أما في علم اللسان فسنتكلم عن رجلين تركا ايضا أثرا . وأساس هذه الحركة هو الرجوع الى مقاومة العقلانية التي جددها وثبتها العلماء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

(63) هذا يشبه ما يقوله عبد القاهر الجرجاني في : دلائل الاعجاز . ولكن الشبه يقف عند هذا الحد لان عبد القاهر لم يزعم في وقت من الاوقات أن النحو (أو العلوم اللسانية عامة) هو دراسة الاسلوب نفسها أي البلاغة بل قال ان البلاغة كعلم تنظر الى مفاهيم النحو لان موضوعه هو الصياغة التركيبية (و « اللفظ » عنده هو هذه الصياغة) .

(64) وهذا ايضا رد فعل ضد الاكتفاء بمشاهدة المخارج الصوتية والاحداث التاريخية الخارجية . فنلاحظ بذلك ابتداء اهتمام الناس بالصورة والصيغة وكذلك العامل النفساني (بالرغم من العناية التي أظهرها بول لهذا العامل — أنظر في ذلك كلامنا عن نظريته في الباب الثاني — فان غالب النحاة المحدثين اهتموا بصفة خاصة بالعوامل الخارجية وأهملوا بل لم ينتبهوا الى أهمية العوامل « الباطنية » التي تكلم عنها هومبولت) . ونشير الى أن أول من عالج الظواهر اللغوية من الزاوية النفسانية هو فلهالم فوندت (W. Wund : 1832 — 1920) وقد تاثر به بول . وتلاه في هذا فان جنيكين (J. Van Ginneken)

(65) وله من التاليف : *Positivismus und Idealismus in der Sprachwissenchaft* (1904) (الايجابية والمثالية في علم اللسان) .

منسجمة (66) . وأهم شيء فعله هو بسطه لفكرة هومبولت (وكان مضى على وفاته 70 سنة) وقد وجدها عند كروتشي ـ بأن اللغة انعكاس لخصائص الشعب الناطق بها وبالتالي فليست ظاهرة طبيعية تؤثر فيها الاحداث المادية . وعلى هذا فانه ينفي أن تكون قوانينها التطورية شيئا خارجا عن ارادة المتكلمين يحصل بكيفية آلية ويجبرون عليه بدون أن يشعروا به وفى هذه الفكرة من المبالغة ما ليس بخفي (67) لأنها صادرة عن حركة مضادة لحركة أخرى . والحق أن هناك عوامل طبيعية محضة مادية تجبر الانسان على الكثير من الافعال ولا يتفطن اليها . الا أن فضل فوسلير وكروتشي وغيرهما من اللغويين « المثاليين » الذي لا ينكر هو ان الباحثين ، بعد اطلاعهم على أقوالهما بدأوا يتنبهون الى أن العامل الفيزيائي أو الفيزيولوجي أو التاريخي البحت غير كاف لتفسير أسرار اللغة وتطورها وبذلك نعتقد أن المبالغات قد تكون فيها نفع ـ وان كان للبعض منها أضرار جسيمة جدا كالتي تصدر عن ايمان قليل ونفاق كثير أو التي هي مجرد هوى ـ لأنها تزعزع شعور العلماء وتجعلهم يستيقظون المرة بعد المرة من « سباتهم العقائدي » فتحملهم على استئناف الاجتهاد وتكييف نظرياتهم وتطوير مناهجهم .

رغم هذه الضربات وهذه المحاولات لدحض حجج التاريخيين فان الدراسات التاريخية والبحث عن القوانين المطردة وأسبابها وعواملها وعللها لم ينقطع أبدا . فالذي انقطع وانتهى أمره هو القول المطلق والاكتفاء بالنظرة الوحيدة. ومعنى هذا أن المناهج وأصول البحث التي وضعها النحاة المحدثون كانت

---

(66) وكان لكرونشي أتباع ايطاليون نذكر منهم برتوني (Bertoni) وبصفة خاصة برطولي (M. Bartoli: 1873 ـ 1946) ورحبا بما قاله جيليرون من أن لكل كلمة تاريخا خاصا بها فتأكدا أن المسؤوول عن تطورها هو الفرد وحده . وهما اللذان أسسا « المدرسة اللغوية المحدثة » Neo - linguistica (1925) . ويوجد الآن من يمثل هذه المدرسة شيئا ما وسنتكلم عن النظريات اللغوية التي استوحت بعض مفاهيمها من هذه المدرسة عند تعرضنا لمناهج علم النفس اللغوي ان شاء الله .

(67) كان المثاليون (وقد سبقهم الى ذلك كل الذين تعصبوا للغة قومهم تعصبا أعمى) يستنتجون من وجود خاصية لغوية عند أمة خاصية خلقية ينسبونها لها (بتحكم عجيب) وبالعكس : يستخرجون من خصائص الشعوب الخلقية خصائص لغاتها (بنفس التساهل) . وهذا وان كان ممكنا تطبيقه فى نظام اللغة المفهومي الا أنه متيهة ومزلة خطيرة لا يسلم فيها الباحث الماهر من الكبوات . وقد بلغ تعسف المثاليين فى ذلك الى أن فسروا ظهور بعض الادوات (كحروف الاضافة الدالة على التبعيض (Partitiv) فى تطور الفرنسية القديمة بظهور الطبقة البرجوازية (القرويون فى القرون الوسطى) وميلها الى التقسيط والتبعيض ! (أنظر فوسلير Frankreichs Kultur ، 1913 . ص 191) . والى القول بان العرق الجرماني أشرف من العرق الفرنسي لان تركيب الجملة يتم فى لغته بتعاظل عناصرها (أنظر : Bally ، Linguistique Générale, 1944 ، ص 16 الهامش 1) . ومن هذا الباب أيضا ما قاله بعض المستشرقين من أن العرب لم توجد فى لغتهم لفظة تدل على مفهوم الضمير (وهذه اللفظة مولدة بهذا المعنى) فاذا ليس لهم ضمير !! وأخطر من هذا هو أن مثالية فوسلير قد غذت كل النظريات العنصرية فى أوربا وأمريكا ، الاستعمارية منها والنازية وغيرها .

على جانب كبير من الصحة اذ لم يبلها الزمان بل أغناها ووسع مجـــال تطبيقها . والسر فى هذا ظاهر : لقد تمسك أولئك الالمان لأول مرة فى تاريخ الدراسات اللغوية فى أروبا بالاستقراء من جهة وبالاستدلال العقلي واستنباط القوانين من جهة أخرى وفوق هذا بالتحرج عن كل قول لا يعتمد على هذين المنهجين . وبلغ شأن هذه المدرسة الآن ــ رغم تقهقر النظرية التاريخية (لأنها ليست هي أهم شيء بل تلك المناهج الدقيقة) ــ مبلغاكبيرا بحيث أصبح العلماء يحاولون التوفيق بين النظريتين هذه والبنوية بل والتفريعية أيضا ، كما حاولوا أن يبرروا مواقفهم : فقد قالت الباحثة الدانماركيـــة ايلـــي فيشريور كنسن E. Fischer - Jorgensen (من معهد اللسانيات والصوتيات فى كوبنهاكن) بأن سر التعارض بين الاعتقاد الذي أظهره النحاة المحدثون فى ضرورة وجود القوانين المطردة وبين ما جاءت به الجغرافية اللغوية والمثالية مناقضتين لهذا الاعتقاد هو اختلاف المادة والميدان اللذين أجروا عليهما بحوثهم . فأما اللهجيون فقد أجروا تحرياتهم على اللغات المنطوقة فى صميم أراضيها وفى فترة زمانية قصيرة فوجدوها وقد اختلفت صيغ كلماتها اختلافا شديدا فكانت الكلمة فى هذا المكان من نفس اللهجة على صيغة ما وفى مكان آخر على صيغة أخرى . ومعنى هذا أنهم تطلعوا الى اللهجات فى أثناء تحولها فشاهدوا بالعيان الفوضى التي يسببها التحول عند حدوثه بالذات فلـم يعرفوا حالتها التي كانت عليها من قبل والحالة التي ستفضي اليها بهذا التحول . وأما التاريخيون فقد قارنوا بين النصوص التي كانت تمثل أطوارا من تاريخها فكان فيها الطور الذي تم وانقضى . فبمقارنتهم لهذه الاحوال المنقضية استطاعوا أن يستنبطوا قوانين مطردة الى حد ما وهذا ممكن جدا بالنسبة الى الاحداث الماضية التي أفضت الى حالة معينة (لأن المنطلق والمنتهى معروفان) . اما بالنسبة الى الحالة الآنية (Synchronique) فغير ممكن لهذا السبب نفسه .

ولكن الذي سيوهن ــ بعد سنة 1920 لا قبل ــ النـزعة المتصلبة فى المدرسة التاريخية القائلة بأن « لا علم الا فى المنهج التاريخي » هي حركة أخرى محايدة تماما للحركتين اللتين ذكرناهما ، ظهرت فى هذه الفترة نفسها وقامت بدور مهم جدا فى تطوير المفاهيم العلمية وعليها سيؤسس علم اللسان ــ فى أحدث صوره ــ وعلوم وتقنيات أخرى بل و « فلسفة » القرن العشرين . وهي الحركة التي تسمى الآن بالبنوية .

ــ نشأة اللسانيات البنوية :

ظهرت حوالي سنة 1890 اتجاهات جديدة فى التحليل العلمي للظواهر الاجتماعية وبصفة خاصة الاحداث الاقتصادية . وكانت فى الواقع نتيجة لتأثر الاخصائيين فى الاتنولوجية والاخلاق وشؤون الاقتصاد بما ظهر فى أواسط القرن التاسع عشر من آراء فلسفية ومنهجية . وأهم هذه الآراء هي فكرة تقدم المجتمع على أفراده فى الوجود أي سبقه الشخص لأن

الشخص كعنصر نفساني اجتماعي هو وليد الاجتماع والعمران . وهذه فكرة قديمة أيضا ، تعرض لها أمثال فون شليجل وفون هومبولت وقبلها هردير وأسبقهم كلهم ابن خلدون . ولكن الذي وضحها واحتج لها وجعلها ركنا أساسيا من أركان علم الاجتماع هو أوكوست كونت السابق الذكر . قال فى خطابه عن **روح الايجابية** : « ان الانسان الحقيقي لا وجود له انما الموجود الانسانية ، حيث ان نشأتنا ونمونا كله راجع الى المجتمع مهما كانت نظرتنا اليهما » . وهي فكرة كارل ماركس (1818 — 1883) أيضا الا أنه جعل كيفية الانتاج العامل الوحيد لتطور المجتمع (قارن هذا بأقوال ابن خلدون) اذ يقول : « ان كيفية انتاج الحياة المادية هي التي يتوقف عليها التطور الاجتماعي والسياسي والثقافي للحياة بأجمعها . فليس وعي الانسان هو الذي يسبب وجوده بل وجوده الاجتماعي هو الذي يسبب وعيه » ولا نحتاج أن نبين الى أي حد أثر هذا الكلام فى جمهور المفكرين فالماركسية ومدى تأثيرها شيء معروف . ولكن الذي يهمنا هو أن نعرف كيف صارت والى ماذا صارت فكرة « تقدم المجتمع على الفرد » فى العلوم الانسانية وخاصة علم اللسان . فأما فى علم الاجتماع فان أكبر ممثل لهذا التيار (لا للماركسية فى تعليلاتها الاقتصادية ولكن لفكرة كونت) هو العالم الاجتماعي الفرنسي المشهور اميل دوركيم (E. Durkheim : 1858 — 1917) فقد وضع هذا الرجل وجرد ، على اثر كونت وماركس مفهوم « التصورات الجماعيـــة » représentations collectives ولفت نظر اللغويين الى أهمية العامل الاجتماعي . وكانوا قبل ذلك غير مبالين بدوره الخطير (باستثناء هومبولت وويتني كما رأينا) غير ناظرين فى اللغة الا الجانب الفردي سواء كان فيزيولوجيا أم سيكولوجيا وتأكدوا أن تطورها انما هو نتيجة لتحولات تحدث فى مخارج الافراد وفى أذهانهم ولم ينتبهوا الى أن هؤلاء الافراد انما يكونون وحدة ذات شعور « ووعي جماعي » (Conscience collective) كما يقول دوركيم . وفسر هذا المفكر مفهوم التصور الجماعي بأنه شيء زائد على مجموع الافراد بل شيء خارج عن صفـات الفـرد ومكتسباته الخاصة به فهو اذا كل صفة غير فيزيولوجية ولا عضوية يشترك فيهـا جميع الاشخاص بسبب اجتماعهم وتعايشهم . وكل ما يصدر عنه فى داخل الجماعة **ومن أجلها** (كمجموع اعتقاداته وتصوراته وعواطفه ومنشآته وغير ذلك مما له علاقة بالجماعة التي يندرج فيها) فجوهره ليس طبعا من جنس الصفات الجسدية أو النفسانية التي تميزه عن الافراد الآخرين . غير أن أهم ما جاء به دوركيم ليس التنبيه على هذا لأن وجود مثل هذه الصفات الجماعية أمر تفطن اليه أكثر من واحد ولكن القول بأنها سابقة لوجود الفرد وخارجة عنه — وباقية بعده — ثم القول بأنها جبرية وقسرية (مثل القوى العضويـــة) وأن للجماعـــة ضغطـــا عـلى الفـرد (Contrainte sociale) فهو مجبر اذا على قبولها والا نفاه المجتمع أو ابتعـد عنـه بكيفيـة مـن

الكيفيات (68) . ومن اللغويين التاريخيين الذين اتصلوا بدوركيم واقتنعوا بسداد آرائه نذكر خاصة اللغوي الفرنسي انطوان ميي (Antoine Meillet : 1866 – 1936) (69) فهو أول من اعتمد اعتمادا كليا على مفهومي دوركيم اللذين ذكرناهما فى تفسير تطور اللغة (وهو مع ذلك من أتباع النحاة المحدثين الاوفياء) ولم يهمل ، رغم هذا ، الجانب النفساني للغة وانما جعله ينسجم بالجانب الاجتماعي الا أنه أعطى لهذا الاخير الاولوية فى غالب تفسيراته . وصرح بأهميته لاول مرة فى مقالة كان لها صدى عميق (**كيف تتحول معاني الكلمات**) (70) . *Comment les mots changent de sens :* يقول فيها : « ان اللغة حدث اجتماعي بالدرجة الاولى (71) وبالفعل فان تحديدها يناسب تماما التحديد الذي اقترحه دوركيم : فللغة وجود مستقل عن وجود كل واحد من الاشخاص الذين ينطقون بها رغم أنه ليس لها أي وجود فى خارج المجموعة التي يتكون منها هؤلاء الاشخاص ، فانها ، مع ذلك ، وبسبب شموليتها ، خارجة عن كل واحد منهم . والدليل على ذلك هو انه ليس فى وسع أي واحد منهم أن يغيرها وأن كل تغيير فردي للاستعمال يحدث رد فعل : واغلب ما يكون الجزاء فى هذا الرد السخرية التي يتعرض لها كل انسان لا يكون كلامه مثل كلام الناس ... فالصفتان اللتان حدد بهما دوركيم الحدث الاجتماعي أي وجوده خارج الفرد وقسريته هما ظاهران فى اللغة ظهورا بينا » .

---

(68) ووقع خلاف بين دوركيم هذا واجتماعي فرنسي آخر يسمى طارد (G. Tarde : **1843 – 1904) فى ماهية الظواهر الاجتماعية . فقال طارد بانها أحداث تحصل بين الافراد وليست خارجة عنهم وأن التقليد هو الذي يحدثها . وأجاب دوركيم بان المحبة أو الكراهية والغيرة التي يكنها أو يظهرها هذا الفرد لذاك ليست ظواهر اجتماعية بل فردية لانها تحصل بين الافراد** (interindividuel) **ولا تكون ظواهر اجتماعية الا اذا اعتبرت فى وقت واحد الجماعة كلها أو أكثرها بسبب وعيهم الاجتماعي نفسه . وفى كلا القولين مبالغة لان الاول يتهاون حقيقة بقوة تاثير الجماعة ككل فى الفرد وتاثير تراثها الاجتماعي الثقافي فيه أيضا . والثاني يتهاون فى مقابل هذا بتاثير العلاقات الفردية فى الشخص وفى الجماعة . والذي يجدر الالتفات اليه بالنسبة الى موضوعنا هذا هو اهتمام سوسور بهذا الجدال . فقد ذكر دروزفسكي فى :** W. Doroszewski, *Durkheim et Saussure, Journal de psychologie,* 1933, p. 82-91 **وكذلك :** *Le structuralisme linguistique et les études de géographie dialectale,*

الهامش 3 in *Reports for the8 th. Interm. Congress of Linguists,* Oslo, 1957, V. II. p. 251 **أن أحد طلبة سوسور أخبره بأن أستاذه كان يتتبع هذه المناقشة بعناية فائقة . ومهما كان من صحة هذا الخبر فان ما يلاحظ من كلام سوسور من خلال دروسه عن التعارض بين الجانب الفردي والجانب الجماعي للظواهر اللغوية ليدل على وجود نفس الاهتمام عنده لهذا المشكل .**

(69) سنعود الى ذكره وذكر آثاره وتاثيره على المدرسة اللغوية الفرنسية فيما بعد .

(70) انظر مجموعة مقالاته : *Linguistique historique et linguistique générale* **باريس 1968 ، ص 230 (الطبعة الاولى كانت فى 1921) .**

(71) من ذلك الوقت اعتاد الناس أن يقولوا « ان اللسان حدث اجتماعي » أو ظاهرة اجتماعية . (سوسور) . وأطلق البعض على هذه النزعة اسم الـ Sociologisme **(سماها معاصرونا « بالاجتماعوية » ونفضل لفظة اجتماعانية على مثال العقلانية والنفسانية) .**

وفى هذا العصر أيضا بدأت أفكار هومبولت وويتني تسترعى أنظار اللغويين (وغيرهم من المفكرين) وتستميل اهتمامهم وانتشرت فى البلدان الغربية بعد أن أصابها الكساد (الا عند القليل) وأصاب أفكار هومبولت الخمول الكامل لعدم انسجامها مع التيارات السائدة فى نهاية القرن التاسع عشر . واقبل عليها الناس بل وتهافتوا عليها لانهم وجدوا فيها ما يبرر ارتياحهم لما وضعه منظرو النحو التاريخي من « عقيدة » لعلوم اللسان ولأنهم وجدوا فيها أيضا ما يمكن أن يقوم مقامها أحسن قيام حسب ظنهم . ولم يخب فى الواقع ظنهم لأن هذه الافكار كانت تمثل تماما ما كان ينقص النحاة المحدثين وأهمها هي النظرة الشاملة الى اللغة ثم النظرة الآنية غير التطورية لظواهرها . وههنا يجب أن نتذكر ما قلناه من أن اللغويين من أهل هذه النزعة كانوا رغم اطلاعهم على فكرة العضوانية (Organicisme) لا ينظرون الى اللغة فى أثناء تحليلاتهم لتطورها هذه النظرة الشاملة أي يعالجون عناصرها باعتبارها أجزاء لكل بل على أنها أشياء يمكن أن تدرس على حدة ومنفصلة عن غيرها ظنا منهم أن اشتراكها فى المجموعة لا يؤثر فى كل واحد منها ولا يزيد شيئا على مجموع صفاتها . ومعنى هذا أن المجموعة عندهم انما هي نتيجة لضم شيء الى شيء فقط . وهم فى ذلك تابعون لافكار الانضماميين (72) الذين قالوا فى القرن السابع والثامن عشر بأن الوعي والظواهر النفسية انما تنتج عن انضمام الاحاسيس والصور الذهنية بعضهما الى بعض وأن هذه الاحاسيس هي فى الواقع « ذرات » للوعي ويجب أن تدرس على حدة ولا يلتفت الى مجموعها الذي هو الشعور لأنه ليس الاصل (73) . فهذه الفكرة مع ما تبعتها من مناهج تحليلية مجزئة غير ملتفتة الى صورة التركيب ، لم يرتح لها الجيل الجديد من الباحثين خصوصا بعد تأثرهم بأفكار الاجتماعيين وما وجدوه فى كتب

---

(72) Associationisme = نفضل هذه اللفظة على الكلمة التي اقترحها علماء النفس وهي الترابطية لان الترابط قد يفهم منه معنى التلازم فى الوجود والتأليف وليس هذا مقصودهم لان اجتماع العناصر عندهم هو مجرد انضمام . وأصل هذه الآراء يرجع الى التجريبيين الحسيين الانكليز (Locke مثلا : 1632 – 1704) والذي نظر هذه النظرية هو دافيد هيوم (D. Hume : 1711 – 1776) واعتمدها كل العلماء فى القرن التاسع عشر لا سيما تين Taine فى الادب وفونت Wundt فى علم النفس) .

(73) الاصل بالنسبة الى عملية التحليل . فان بهاته العملية يوصل الى العناصر الاولية وبما أن العلم لا يمكن أن يستغنى عن التحليل (بل ولا علم بدون تحليل) فينبغي أن تعتبر ، فى المجموعة الا جزاء الاولية وهذا نوع من المغالطة لان التحليل وان كان الاساس فى المنهج العلمي الا أنه غير كاف اذ ما دمنا لا نعرف – بعد كشفنا للوحدات – كيف تتركب فى المجموع وما هي هيئتها فاننا نكون قد جهلنا أهم شيء فى موضوع بحثنا . ثم زد على ذلك أن هذه الاحاسيس والصور الذهنية ما كانوا يعرفونها الا عن طريق التامل الباطني الشخصي ثم ما الذي يضمن لنا أنها هي « ذرات » الفكر كما زعموا ؟ (لا ننس مع ذلك فضل التجريبيين : فانهم نبهوا العلماء على أهمية الجانب الحسي والتجريبي فى تكون الفكر الا انهم بالغوا فى ذلك حتى جعلوه كله متكونا من أحاسيس منضمة بعضها الى بعض ونسوا أن الفكر فى ذاته هو قبل كل شيء عمل ونشاط وبناء والاحاسيس انما هي مادته (وليست الفكر وان كانا متلازمين اذ لا عمل بدون مادة يقع عليها) .

فون هومبولت وويتني وما راوه أيضا من اهتمام الفيزيائيين والرياضيين بمفهوم المجموعة (وكانت قد انتشرت فى نهاية القرن التاسع عشر نظرية ماكسوال فى المجالات الكهرطيسية ونظرية المجموعات للرياضي الالماني كانتور (1845 — 1918) . ثم انهم شعروا (74) أيضا — لاول مرة منذ وفاة هومبولت — ان التتبع التاريخي وان كان ضروريا — واساس المنهج العلمي عند اكثرهم — فانه لا يغني الباحث عما يحتاج اليه فى عملية المقارنة وتصفح مراحل التطور **نفسها** وهو : نظرية عامة فى اللغة ذاتها تتضح بها مفاهيمها وتتحدد عناصرها وآلياتها اذ بدون نظرية مثل هذه يضطر الباحث الى أن يرجع الى تحديدات الفلاسفة والنحاة التقليديين لانه لا يتصور أن يبحث عن تطور الفعل فى لغة من اللغات من زمان كذا الى زمان كذا وهو لا يعرف ما هو الفعل وما هي صفاته المميزة له عن غيره . ثم ان التحرج العلمي يلزم عليه أن تكون المفاهيم التي يعالجها واضحة فى ذهنه وأن يحددها لمن لا يعرفها تحديدا دقيقا لا يحتمل أدنى التباس . وقد أحس بذلك بالخصوص أنطوان ميي فكان دائما يصرح لزملائه وتلاميذه بأن اللسانيات (ويعني بذلك التطورية) محتاجة أشد الحاجة الى أن يعاد النظر فى المفاهيم النحوية الوصفية التقليدية لتستبدل بمفاهيم نحوية أكثر منها دقة وموضوعية واقرب الى روح **العلم** « الحديث » . وكان يسمي هذا الذي يعتبره قسما ضافيا وتكميليا فقط لعلم اللسان **باللسانيات العامة** Linguistique Générale ويتمنى أن تكون بذلك شبه مقدمة عامة للدراسات اللغوية التاريخية . وهكذا أخطأ ميي الغرض ولم يكتب له أن يضع تلك النظرية المنشودة لأنه لم يتفطن الى أهميتها والى أنها أخطر بكثير من النظرية التاريخية . وكتب ذلك على فردينان دي سوسور كما سنراه فيما يلي .

ففي هذا الجو من الاستياء والسخط على أوهام الانضمامية ونقائص المنهج التطوري **ظهرت من جديد فكرة النظام الباطني او الصورة والصيغة الناتجة عن التركيب الزائدة على مجموع الصفات الجزئية** وتسربت ابتداء من السنوات الاخيرة للقرن التاسع عشر الى أذهان بعض المفكرين ،

---

(74) قبل أن تظهر حركة النحاة المحدثين كان بريئال اللغوي الفرنسي يقترح الرجوع (مع استمرار الدراسة التاريخية) الى النحو العام أو الفلسفي ومراجعته على أساس مشاهدة الظواهر اللغوية وتتبعها من خلال جميع اللغات الحية (وقبوله هذه التسمية ثم ذكره لبورويال كمثال لهذا النوع من الدراسة يدل على أن نظرته الى علم اللسان العام كانت مماثلة للتقاليد الفلسفية الفرنسية وهذا هو بعينه ما يفارق به سوسور كل من تقدمه من أصحاب النحو العام الارسطوطاليسي لانه وان استعمل بعض مفاهيم أرسطو الا أنه بتجديده لمحتواها ولوجهة نظر أرسطو لها كاد يفرغها من هذا المحتوى ولم يبق فيها الا اثر التقسيم الذي وضعه هذا الفيلسوف (وهذا خلافا لما قاله الاستاذ مونان فى كتابه عن تاريخ اللسانيات قبل القرن 20 ، ص 218 — 219) .

اللغويين منهم وغير اللغويين (75) . ويجب ههنا أن نلاحظ أن كونت وماركس ودوركيم وغيرهم وان كانوا قد تنبهوا الى أهمية مفهوم الكل وأنه شيء زائد ومتجاوز لكل واحد من أجزائه فانهم لم يشيروا الى الجانب الاخطر لهذا المفهوم : وهو **النظم** نفسه أي التأليف الذي يستلزم أن تكون لكل جزء في داخل المجموعة صفات خاصة تشاركه فيها بعض الاجزاء **وتغايره** بها أجزاء أخرى فباتصافه بتلك الصفات تكون له مع كل واحد من الاجزاء الاخرى **علاقات ونسب** ومجموع هذه النسب تسمى (في اصطلاح علماء هذا العصر) الصورة أو الصيغة (forme) أو النظام (système) واطلق عليها فيما بعد لفظ البنية (structure) لأنهم اعتبروا في التأليف **البناء** . وميي نفسه لم يلتفت الى هذا الجانب الهام بل الذي لفت نظره هو النظام كمجموع أجزاء متناسقة لا التناسق في ذاته كعامل له كيان على حدة وبالاحرى تأثير في المجموع وفي أجزائه .

غير أن مفهوم الصورة (بحسب هذا التحديد) ليس هو المفهوم الوحيد الذي انتقلت به اللسانيات من النظرة التاريخية الى النظرة الوصفية البنوية لأن الالتفات الى بنية اللغة يقتضي من الباحث لا الامساك عن كل اعتبار تاريخي بل التمييز الصريح بين هذا الاعتبار وبين النظر في هيكل اللغة في وقت معين أي بصرف النظر عن العامل الزماني وأحداث التطور . وتحقيقا لهذا التمييز المنهجي بدأ الباحثون ممن ثار على جبروت النحو التطوري يبسطون آراءهم في ماهية اللغة وما تستلزم دراستها من مباديء نظرية ومنهجية .

ان أول من وضح وحدد ونظم هذه الافكار الجديدة (بالنسبة الى اللسانيات التاريخية) هو **فردينان دي سوسور اللغوي السويسري** (Ferdinand de Saussure : 1857 – 1913) (76) الذي سبق أن ذكرناه

---

(75) نذكر منهم فون اهرنفلز (Von Ehrenfels: 1859 – 1932) . وهو أول من جرد من علماء النفس مفهوم الكيشتالت: Gestal (الصورة الكلية) وطبقه على الظواهر النفسية وتكونت بعده (1913) مدرسة الـ Gestaltheorie أي مدرسة علم النفس الشكلي ومن علمائها فرتهيمر (M. Wertheimer : 1880 – 1943) وكوفكا (K. Koffka 1886 – 1941) وكوهلر (W. Köhler : 1887) وتبعهم في ذلك عالم آخر متخصص في الفيزياء : كورت لوين (K. Lewin : 1890 – 1947) فطبق هذه المفاهيم على الظواهر النفسية الاجتماعية وكل هؤلاء من الالمان الذين هجروا بعد 1933 الى امريكا .

(76) هذه نبذة من سيرته : ولد سوسور في جونيف في 1857 في بيت شريف امتاز فيه اكثر افراده في العلوم الدقيقة والطبيعية (وكان لذلك أثر في تكوين سوسور) . ودرس دراساته الثانوية حتى بلغ السابعة عشرة من عمره وكان قد أظهر في هذه المدة ذوقا عميقا للدراسات اللغوية . ثم دخل الجامعة وتابع فيها دروسا في مختلف العلوم لشدة تعطشه الى العلم . وكان دائما يميل في نفس الوقت الى الرياضيات وعلوم اللسان . وفي سنة 1876 قرر مصيره بذهابه الى ليبتسيش والتحاقه بحلقة اللغويين الالمان ودرس اولا على كورتيوس (وقد ذكرناه فيما سبق) وكتب عليه أن يشاهد شهادة عيان الخلاف الذي قام بين هذا الاستاذ وشبان اللغويين (النحاة المحدثين) فتعرف على بروجمان واستهوف وغيرهما وكان يحضر مناقشاتهم

أكثر من مرة . ونستطيع أن نقول بأنه أول من أظهر للناس ــ من خلال دروسه ــ أهمية الدراسة البنوية بوصفه وتحليله لمفاهيمها ومناهجها واحتجاجه المقنع لصحتها وعظيم فائدتها فأخرج للباحثين بهذه التحليلات خير ما يمكن أن يرجع اليه فى هذا النوع من الدراسات . وذلك لأن سوسور وان لم يكن اللغوي الوحيد الاوحد الذي اهتدى فى زمانه الى تلك المفاهيم ، فانه استطاع أن يجعل ، قبل غيره ٪ من هذه المعاني والافكار ، نظاما فخما دقيقا منسجم الأطراف بعيد الغور ولا يزال العلماء الى حد هذه الساعة يتعجبون من نفوذ ذهنه وقدرته على توضيح المفاهيم الغامضة وتركيب

ويساهمهم فيها ندا للند وهو ابن 19 سنة ! ورغم اعجابه بعلم الالمان وبدقتهم وتشددهم فى اثبات الاحداث (وكان مخلصا فى هذا الاعجاب) فان طبعه الذي ركب عليه : عدم اطمئنانه ازاء الأقوال الجازمة وشمولية ميوله العقلية وصبوته الى الكمال فى جميع أعماله ، جعلـه لا ينسجم بهؤلاء الشبان الالمان وربما تكون قد خطرت فى ذهنه الفتي منذ ذلك الوقت تلك الافكار التي ستلازمه طيلة حياته (ولم يرتح لها هي نفسها) . وفى سنة 1878 أنهى تحرير الرسالة المسماة بـ « رسالة فى النظام الاصلي للمصوتات فى اللغات الهندية الاوربية » (طبع فى ليبتسيش فى 1879) ونال بها ــ فى زمانه ــ شهرة عظيمة (اعترف كل العلماء بأنه لم يبلغ أي بحث مثل ما بلغه هذا التحليل من الدقة والعمق) . ثم قدم فى 1879 أطروحته المسماة بـ « استعمال حالة الجر المطلق فى اللغة السنسكريتية » (طبع فى جونيف فى 1881) وهو ابن 22 سنة . وفى سنة 1880 انتقل الى باريس واستقر فيها حتى سنة 1891 وعرض عليه بريئال ــ بعد أن لاحظ فيه هذا النبوغ العجيب ، أن يحل محله فى مدرسة الدراسات العليا . فحضر دروسه فى أثناء مقامه كل الجيل ، تقريبا ، الذي سيشتهر فى اللسانيات بعد ذلك فى فرنسا . وفى كل هذه المدة لم يعتن فى تلك الدروس الا بالنحو المقارن والتاريخي . وكلف فيها بالاشراف على منشورات جمعية باريس اللغوية وكان قد عين فيها نائبا للامين العام . ثم فى سنة 1891 قرر الرجوع الى جونيف وانشىء فى جامعتها كرسي التاريخ المقارن للغات الهندية الاوربية له خاصة وبقى شاغلا لهذا الكرسي الى 1896 ثم توارى عن أنظار الناس وترك كـل شيء وامسك عن الانتاج (الا العدد القليل من المقالات) ولا ندري بالضبط ما كان السبب فى ذلك (يظن بعض من أرخ له أنه كانت فى حياته الخاصة مشاكل عويصة مؤلمة) . وفى سنة 1907 بعد أن الح عليه طلبته وسالوه أن يعرض عليهم أفكاره فى اللسانيات العامة التي طالما كان يحدثهم عن أهميتها فوعدهم بذلك ورجع الى التدريس . ووفى بما وعدهم فانهالوا عليه بالسؤال الكثير وكتبوا كل ما كان يقوله بعناية شديدة لجدة ما كانوا يسمعونه ولاستلابهـم أيضا بقوة استدلاله وفصاحة كلامه ومهارته فى التلقين . وكانت وفاة سوسور بعد ذلــك بسنتين . ولم يستطع اذ عاجلته المنية أن ينجز ما كان قد قرر من انشاء كتاب يعرض فيـه نظريته ونحن نعرف أنه قد عقد النية على ذلك منذ زمان بعيد بفضل رسالة بعثها الى صديقه وزميله ميي (وكان هذا تلميذا له فى باريس) فى 1894 . يقول فيها : ... « لقد سئمت من كل هذا ومن الصعوبة التي الاقيها غالبا فى تحرير عشرة أسطر فقط فى موضوع الاوصاف التي تشترك فيها الاحداث اللغوية . وأنا مهتم منذ زمان طويل بتصنيف هذه الاحداث تصنيفا معقولا وتصنيف وجوه النظر التي نعالجها بها ، فصرت الح أكثر فأكثر ضخامة العمل الذي يجب على الباحث أن يضطلع به حتى يشعر اللغوي بحقيقة ما يجريه من تحليل وذلك برد كل واحدة من عملياته الى الباب الذي تنتمي اليه ....وسيختم عملي هذا بكتاب أحرره وأنا مكره على ذلك ، أفسر فيه ، بدون حماس ، لماذا لا يوجد لفظ واحد يستعمل الآن فى علم اللسان (التاريخي) يمكنني أن أتبين فيه معنى من المعاني » . وبعد أن اختفى سوسور تأسف هؤلاء الطلبة على عدم تنفيذه لمشروعه . فاتفق اثنان منهم بالي (Bally) وسيشوهـــي (Sechehay) على أن يجمعا استنادات الطلبة فنشراها بعد أن حرراها (تحريرا جيـدا أمينا) فى سنة 1916 بعنوان : « دروس فى علم اللسان العام » (Cours de linguistique générale).

المعاني المنفصلة المتباعدة والتوفيق بين النظريات المتنافية . فأما الافكار التي استوحى رسمها الاولي من معاصريه من أصحاب النزعة الجديدة (77) والتي لم يقتبسها من أي واحد وانما اتفق أن وجدت عند غيره لتوارد الافكار فقط فانها لم تكن عندهم على هذا القدر العجيب من الوضوح والدقة والتجريد ولم ترتبط عندهم هذا الارتباط العضوي الذي نشاهده في تحليلاته . ثم ان كان سوسور قد استوحى كما قلنا الكثير من هذه الاشياء من هؤلاء — ومن المفكرين القدماء أيضا — فانه انفرد — زيادة على الصيغة الجديدة التي صاغ بها الافكار القديمة — ببعض المفاهيم والتشبيهات الرائعة (78) .

لابد قبل أن نشرع في عرض أفكار سوسور ، من أن نتساءل عن المصير الذي كتب لهذه النظرية بعد وفاة سوسور وبالاصح بعد أن صدر الكتاب الذي جمعت فيه دروسه الاخيرة أي بعد سنة 1916 . ان ما عرف عن هذه الافكار أنها لم تشتهر ولم يذع صيتها الا بعد سنة 1929 . فما السبب في ذلك ؟ ألم يطلع الناس على هذا الكتاب الا بعد هذه المدة الطويلة ؟ كلا فان العدد الكثير من اللغويين عرفوا الكتاب واطلعوا على ما فيه بمجرد ما صدر . ففي هذه السنة نفسها نشر ميي تعليقا عليه وفعل ذلك أيضا جرامون (Grammont) ويسبرسن في سنة 1917 وماروزو في سنة 1923 وبلو مفيلد في سنة 1924 ، الا أن هذه التعليقات النقدية ربما كانت السبب في خمول النظرية لأنها كانت غالبا سلبية للغاية اذ لم تلتفت الى جوانبه الايجابية وكيف لا تكون سلبية ولا يكون أصحابها مستنكرين وهم (ما عدا بلومفيلد) أرباب الدراسات التاريخية ، الراسخون في عقيدتهم بأن لا علم الا في المنهج التاريخي . ونذكر بهذا الصدد كلاما قاله جورج مونان ، سديدا حكيما . قال : « انها لعبرة لمن اعتبر وتأمل كوارث العلم عندما تتناقله الاجيال ، أن يكون كتاب يقرأه الناس قراءة جيدة ولا يدركون معانيه في أول الامر الا من حيث أخطأ أو ما يظن أنه أخطأ وأن يكونوا بالخصوص

---

(77) منهم بودوان دي كورتوني (Baudouin de Courtenay : 1845 — 1929) وهو لغوي بولوني أقام مدة طويلة في روسيا يدرس في جامعاتها ويبحث في لغاتها وهو أول من أثبت حقيقة الحروف الفنولوجية وسبق ذلك سوسور وترويا تسكوي . وكان له تلميذ ذكي يسمى كروسفسكي ساهم هو أيضا في اثبات هذه الحقائق (واعترف لهما سوسور نفسه) ويعتبر بودوان رائد اللسانيات البنوية . الا أنه لم ينتبه اليه أحد من الناس حتى عرفه تروبا تسكوي (كما عرف سوسور أيضا) . ولابد أن ننوه كذلك بما عمله عالمان جليلان ظهرا في ذلك العصر وهما : السويدي أدولف نورين (A. Noreen) والسويسري أنطون مارتي (A. Marty) فقد اهتما هما أيضا بالدراسة الوصفية البنوية الا انهما لم يشتهرا في زمانهما . أما الآن فقد بدأ الناس يعتنون بما قالاه (وبالخصوص انطون مارتي) عناية كبيرة .

(78) وذلك مثل الـ Syntagme والنسب التركيبية (Rapports syntagmatique) ونظريته في المقطع (ومفهومي الـ implosion والـ explosion) ومفهوم الـ sème والـ sémiologie وتسميته الدال والمدلول بـ signifiant و signifié وكذلك مقارنته بين اللغة ولعبة الشطرنج (انظر فيما يلي ما اخترناه من كلامه) .

قد ادركوها لا فى مجموعها وفى داخل نظامها المفهومي بل من حيث مخالفتها لنقطة من نقط العقائد الشائعة فى زمانهم » (79) .

وكان من حظ هذه النظرية أخيرا بل من من حظ العلم أن أنتبه عالمان من كبار العلماء فى اللسانيات الى ذلك الجانب الايجابي بادراكهما لمفاهيمها فى داخل نظامها (كما يجب) كما تفطنا الى أبعادها الحقيقية ومستتبعاتها فى ترقية العلوم اللسانية وذانك العالمان هما الروسيان : الامير نيكولا تروباتسكوى (Trubetzkoy : (1890 – 1938) ورومان ياكوبسون (R. Jakobson 1896 ولا يزال حيا) . فقد كان وصل الى موسكو في عام 1917 أحد طلبة سوسور يسمى كارسفسكي (S. Karcevski) واطلع اللغويين الشبان الروسيين على نظرية أستاذه فتحمسوا لها لأنها جاءت فى الوقت المناسب أي فى الوقت الذي كانوا بدأوا يتوقون الى نظرية تفسر لهم نظام اللغة وآلياتها العامة بصرف النظر عن العامل التطوري (وذلك بعد أن تأثروا بكلام بودوان دي كورتوني وتلميذه كروسفسكي) (Kruszevski) . وهؤلاء اللغويون الثلاثة هم الذين لفتوا نظر اللغويين الغربيين الى خطورة أفكار سوسور وذلك فى أول مؤتمر دولي عقده اللغويون (لاهاي سنة 1920) . وكانوا قد بنوا نظرية جديدة فى أسرار النظام الصوتي سموها الفنولوجية (وسنتكلم عنها فى موضعها ان شاء الله) . ومنذ ذلك الحين أقبل الناس على « الكتاب » وكثرت التراجم من اللغة الفرنسية الى اللغات الاخرى (80) . وتعددت التعليقات عليه والمناقشات حول مقاصده ومعانيه الى حد بعيد جدا .

---

(79) انظر كتابه عن سوسور ، باريس 1968 ، 74 – 75 . أما اللغويون الفرنسيون فيظهر أن ميي كان العامل الاساسي فى عدم انتشار « السوسورية » فى فرنسا (حتى عام 1945 !). والسبب فى ذلك هو أن ميي لم يسمع من سوسور (وكان أستاذه فى باريس كما قلنا) هذه الدروس ولم تصل اليه أفكار أستاذه المتأخرة الا بعد ما نشرت فى 1916 وهو آنذاك الاستاذ الذي لا ينازع . ورغم أن نظرية سوسور كانت تتراءى شيئا ما فى محاضراته التي القاها فى باريس فان ميي وأتباعه لم يستطيعوا أن يدركوا فحواها لقلة اهتمامهم بما لا يناسب منشاهم الثقافي . وفى آخر أيام حياته أبدى بعض الاهتمام بأفكار تروباتسكوي ولكن « شر الرأي الدبري » ! أما فيما يخص اللغويين الامريكيين فلم يطلع منهم على كتاب سوسور عند صدوره الا بلومفيلد (وأفراد قلائل) وكان قد صدر فى 1921 كتاب « اللغة » لسابير (Sapir) وكان يحتوي على أفكار وجيهة جدا فى ماهية الحروف ومفهوم الصورة ودوره فى تطوير اللسانيات الامريكية بمنزلة دور تروباتسكوي فى تطوير اللسانيات الاوربية الا انه لم يكن تابعا فى ذلك لسوسور بل لهومبولت مباشرة . ثم ان الذي منع الامريكيين من الاطلاع على مقاصد سوسور بعد ذلك هو استفحال نزعة جديدة ظهرت عندهم فى تحليل اللغات انبثقت من كتاب « اللغة » لبلومفيلد (البيهافيورية اللغوية) ولم تصل اليهم أفكار سوسور الا بعد (1947) نشر فى تلك السنة مقال فى مجلة *Word* (3 ، ص 1 – 31) بعنوان *De Saussure's system of linguistics* لولس (R.S. Wells) وعرف الامريكيون بعد ذلك قيمة ما قاله سوسور ويعترفون اليوم بفضله على اللسانيات .

(80) ترجم أول ما ترجم الى اليابانية (فى 1928 وتأثيره على اليابانيين جد عظيم) ثم الى الالمانية (1931) والروسية (1933) والاسبانية (1945) والانكليزية (1959) والبولونية (1961) والايطالية (1967) أما العربية فقد شرعنا فى اعداد ترجمة له ، بتعليقات على النص .

ان النظرية التي وضعها وجردها سوسور تشتمل على عدد من المباديء والاعتبارات العامة استخرجها من مشاهداته وتحليلاته لظاهرة التخاطب اللغوي وأداته التي هي اللسان والنظر فى تلك الاداة وعناصرها وتركيبها من جهة ومن مقارنته بين مختلف النظريات اللغوية وطرق البحث التابعة لها التي عرفها الغربيون فى زمانه من جهة أخرى . ويمكن أن نحصر أصالتها فى :

ـ **كيفية تحديده للعلاقة القائمة بين الدال والمدلول فى الاذهان وفى الاعيان وبنائه بذلك نظرية للدليل اللغوي** (Théorie du signe linguistique) تفسر ماهية الدلالة اللغوية الى حد ما . واشارته بعد هذا الى وجود علم أشمل من علم اللسان يتضمنه ويتضمن الانظمة الدلالية التبليغية الاخرى ، يسميه Sémiologie أي علم الادلة (أو علم السيمياء) .

ـ **تمييزه الصريح** ـ وكيفية احتجاجه لهذا التمييز ـ **بين اللسان** (81) (langue) **كوضع** (أو مجموعة منتظمة من الرموز) **تصطلح عليه الجماعة** ويشترك فى **استعماله** جميع أفرادها وبين **الكلام** (parole) (82) **كتأدية فردية للسان** . وخروجه بعد ذلك الى الحكم بأن اللسان بهذا المعنى أي بما هو قدر مشترك ، هو صورة (forme) وليس بمادة (substance)

ـ **تحديده ، بناء على هذا ، لموضوع اللسانيات : هو اللسان لا للكلام فى ذاته** وان كان اللسان لا يظهر ولا يمكن مشاهدته الا من خلال الكلام أي من تأدية كل فرد له ومن كيفية استعمال مجموع الافراد له . أما الظواهر الخاصة بالكلام فدراستها وان كانت ضرورية لدراسة اللسان الا أنها لاحقة بها وليست هي غاية علم اللسان فى ذاته (ويعني بذلك الظواهر الفيزيولوجية والصوتية والنفسانية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية وغير ذلك مما هو سبب أو آلة أو محل لحدوث الكلام وتحوله) .

ـ **توضيحه لمعنى الارتباط** فى قول العلماء « ان اللسان نظام (Système) ترتبط فيه جميع أجزائه بعضها ببعض » (83) على أساس اتحاد الهويات

---

(81) أو اللغة بمعناها العام الذي رأيناه عند ابن جني (أنظر مقدمتنا وكلامنا عن العلوم اللسانية عند العرب) ولفظة langue بهذا المفهوم هو مجرد اصطلاح وضعه سوسور وترجمتنا اياها باللسان أو اللغة هي ترجمة حرفية ولا تعني أن مفهوم سوسور هو نفس المعنى الذي تدل عليه لفظة « لسان » فى العربية . انظر الهامش الذي يلي هذا .

(82) ما يفعله ويحدثه المتكلم . وللفظة « كلام » فى العربية معان أخرى أو بالاصح استعمالات أخرى غير هذه كقول النحاة : « هذا كثير فى كلام العرب أو ليس من كلامهم » : فالكلمة التي تؤدي معناها ههنا هي بالفرنسية langage أو actes de discours ويعبر عن المقابلة : لسان / كلام باللغة الالمانية بـ Rede/Sprache والانكليزية language/speek والروسية : Mowa/Jezik ويجب أن نلاحظ أيضا أن النحاة العرب كانوا يعبرون عن هذين المفهومين لا باللسان (أو اللغة) فى مقابل الكلام بل بكلمة وضع فى مقابل الاستعمال أو التأدية أو الاداء (وهم أول من بين الفوارق بينهما ، وكانوا بنوا جميع تحليلاتهم عليها . انظر كتابنا فى علم العربية) .

(83) كان أكثرهم يرددون هذه العبارة ولا يعرفون مضمونها وبالاحرى أبعاد هذا المضمون .

واختلافها (identités et différences) أي على أن العناصر اللغوية فى ذاتها أمثلة تبقى هي هي فى أذهان المتخاطبين وان اختلفت تأدياتها وعلى أن كل واحد منها يكسب هويته عند المتخاطبين بمخالفته ومقابلته (opposition) لغيره (مبدأ التقابل) (84) . الا أن الاختلاف ــ بهذا المعنى أي التباين والتقابل ــ هو جوهر النظام نفسه . فاللسان ــ كصورة ــ هو مجموع المباينات الحاصلة بين عناصره وعلى هذا فكل عنصر فيه **كيان تباييني أو تفاضلي** (oppositif, différentiel) **ونسبي** (relatif) **وسالب** غير موجب (négatif) من هذه الحيثية لأنه ينتج عن مقابلته لكل واحد من العناصر الاخرى ويتحصل وجوده بالنسبة الى غيره ولا شيء يعتبر فى نفسه الا بالاضافة الى غيره (85) . ومن ثم أيضا يرى سوسور أن الوحدات اللغوية هي بمنزلة الوحدات الاقتصادية كالعملة مثلا فالقطعة من النقود لا يمكن أن يكون لها وجود كوحدة اقتصادية الا ان امكن أن تبادل بشيء آخر غير النقود وأن تكون لها صفات تقابل بها القطع النقدية الاخرى . وعلى هذا فان كيانها هو القيمة (valeur) الحاصلة من معادلتها لأشياء غير مجانسة لها ومقابلتها لأشياء اخرى مجانسة لها وكذلك هي الوحدات اللغوية لا يحصل كيانها الا اذا أمكن لألفاظها أن تبادل أي أن تسير بين الناس بما تعارفوا عليه لها من معان أو من دور فى التمييز بين المعاني ولا يحصل هذا بالفعل الا اذا اكتسبت كل لفظة مجموعا من الصفات تقابل بها كل واحدة من الالفاظ الاخرى .

ــ **تمييزه الفاصل بين نوعين من الدراسة : الزمانية** (diachronique) **والآنية** (synchronique) وهذا منه محاولة اصلاح للاراء الخاطئة التي أضلت أكثر اللغويين الغربيين منذ أن افتتنوا بمفهوم التطور كمفهوم اجرائي فى تحليل الظواهر وقابلوا به المعيارية النحوية أو المنطقية العقيمة . فأداهم ذلك الى أن ينفوا صفة العلم عن كل تحليل يختص بوضع اللغة فى زمان معين ويعدون ذلك مجرد وصف واحصاء (لأنهم بانصرافهم عن كل ما ليس تعليلا تاريخيا ما استطاعوا أن يعرفوا قيمة التحليل البنوي) . على أن سوسور لا ينكر أهمية الطريقة التاريخية انما الذي ينكره هو أن تغلب النظرة التاريخية على النظرة التي تعمد الى نظام اللغة فى حالة من تطورها (état de langue) أي أن يعلل كل شيء فى هذا النظام بحوادث الزمان (وزد على ذلك عدم

---

(84) وذلك مثل حرف الباء مثلا فان هويته (ذاته فى اصطلاح النحاة العرب) لا تظهر الا بالاضافة الى غيره من الحروف : فشفويته وشدته وعدم غنته الخ ، ليس لها معنى خارج النظام الذي يرتبط فيه بغيره . فالصفة الاولى لها دلالة بالاضافة الى التاء مثلا (لان التاء ذولقية غير شفوية) والثانية بالنسبة الى الفاء لأن الفاء رخوة والثالثة بالنسبة الى الميم لأن الميم وان كانت شفوية أيضا الا انها ذات غنة . ومجموع الصفات المميزة (يسمى نحاتنا الصفة الذاتية « الفضيلة » قارن بكلمة : التفاضل) هي ذات الحرف (عند ابن سينا : الحرف هيئة عارضة للصوت يتميز بها عن صوت آخر مثله ... فى المسموع ... »

(85) معنى السلبية أن العنصر اللغوي لا يكون بمحتواه وجوهره الايجابي (= مضمونه المادي والنفساني) فهو من هذا الوجه سالب . أما فى داخل نظام المتقابلات فيصير ايجابيا مع غيره وبغيره .

معرفة التاريخيين لحقيقة النظام اللغوي) . ويبرر سوسور موقفه بأن النظام أو الاعتدال الوضعي الذي تتصف به اللغة في وقت معين لا يمكن أن يفسر بالعوامل التاريخية العارضة (accidentels) الجزئية انما الذي تفسره هذه العوامل هو تحول جزئيات اللغة المادية أما انتظامها وائتلافها الذي تكتسبه فور فقدانها اياه فهذا راجع الى أسباب غيرعارضة بل مستمرة وباطنية (أي غير خارجة عن نظامها الداخلي) **وبها تتكون اللغة من حيث هي لغة .**

هذه هي أهم أفكار سوسور وليس هذا الذي قدمناه للقاريء الا لمحة وجيزة عنها ولهذا رأينا أن نطلعه على نبذ من كلامه تمثل بكيفية محسوسة كل واحدة من هذه الافكار . قال :

« يظن بعض الناس أن اللسان انما هو ، في أصله ، مجموع الفاظ اي قائمة من الاسماء تطلق على عدد مماثل من المسميات ... وفي تصورهم هذا نظر ، من عدة وجوه : انه يفترض وجود معان جاهزة قبل وجود الفاظها ثم اننا لا نتبين به هل الاسم هو من جوهر صوتي أم نفساني ... ويشعرنا أيضا أن ارتباط الاسم بالمسمى هو عملية في غاية البساطة وهذا بعيد جدا عن الواقع ... ان الدليل اللغوي لا يربط بين شيء ولفظ بل بين مفهوم وصورة صوتية (image acoustique) (أي يربط لا الشيء المسمى باسمه الملفوظ بل مفهوم ذلك الشيء أو تصوره في الذهن بصورة لفظه الذهنية). فهذه الصورة الصوتية ليست هي الصوت المادي لأنه شيء فيزيائي محض ، بل انطباع هذا الصوت في النفس والصورة الصادرة عما تشاهده حواسنا . فهي حسية واذا اتفق أن وصفناها بأنها « مادية » فمن هذا الوجه فقط وبالمقابلة بينها وبين الطرف الآخر في هذا التشارك أي المفهوم وهو غالبا أكثر منها تجريدا ... فالدليل اللغوي اذا كيان نفساني ذو وجهين (86) . يسمى دليلا (لغويا) المركب المتكون من المفهوم والصورة الصوتية (صورة اللفظ في الذهن) .. .ولكن نقترح ابقاء لفظة « الدليل » للدلالة على الكل واستبدال لفظتي « المفهوم » و « الصورة الصوتية » بلفظتي « الدال » و « المدلول »(Signifiant et signifié)وفضل هاتين التسميتين على الاوليين هو أن الفرق الذي يفصل بينهما الاثنين أو بينهما وبين الكل الذي يتضمنهما يظهر بهما ظهورا جليا ... » (87) .

---

(86) هذه الاعتبارات النفسانية هي عند سوسور من مخلفات النزعة النفسانية التي سادت في أوساط اللغويين والمناطقة والاجتماعيين في أواخر القرن التاسع عشر (والميل الى تغليب وجهة نظر النفسية نشأ أيضا في ألمانيا وقبله النحاة المحدثون كذلك) . ولكن سيحصل رد فعل على هذه النزعة المستبدة ، في بداية القرن العشرين ، في امريكا خاصة كما سنراه بعد . أما في البنوية الحديثة فيحاول فيها العلماء دائما أن يجعلوا المفاهيم « الذهنية » (mentalistes) بين قوسين كما يقولون . وكثيرا ما انتقدوا على سوسور عبارته هذه .

(87) دروس علم اللسان العام ، باريس ، 1966 ، ص 97 ـ 99 .

« ان العلاقة التي تربط الدال بالمدلول هي علاقة **اعتباطية** (arbitraire) (88) وسبق ان استعملنا كلمة Symbole (= الرمز) وعنينا به الدليل اللغوي أو على الاصح ما نسميه بالدال . ولكن فى قبولنا لهذه التسمية بعض السيئات من جراء المبدأ الذي قدمناه . فمن مميزات الرمز انه لا يكون أبدا اعتباطيا بالتمام . فانه ليس فارغا بل فيه بين داله ومدلوله ، شيء من الارتباط الطبيعي . فرمز العدالة الذي هو الميزان يستحيل أن يستبدل بأي شيء كان ، عربة مثلا ... ونعني بالاعتباطية أن الدال (89) غير مسبب (immotivé) أي اعتباطي بالنسبة الى المدلول (90) الذي لا تربطه به أية علاقة طبيعية فى الواقع .

« ... ان فكرنا ، اذا اعتبرناه فى اطاره النفساني وجردناه عن الابانة بالالفاظ فانه لا يكون حينئذ الا كتلة مبهمة لا شكل لها . فان الفلاسفة واللغويين اتفقوا دائما على انه لولا الادلة لما استطعنا أن نميز بين فكرتين بوضوح وباستمرار . فالفكر اذا اعتبرناه فى ذاته ليس الا سديما (nébuleuse) لا شيء يتحدد فيه بالضرورة . ولهذا فليست هناك معان مسبقة الوجود ولا شيء يتميز منها قبل ظهور اللسان . وأمام هذه الملكة الحائرة فهل تكون الاصوات فى ذاتها كيانات محددة سلفا ؟ ولا هي أيضا . فالمادة الصوتية ليست أكثر منها تثبتا وتماسكا ... ثم انها ليست قالبا يتشكل به الفكر تشكلا محتما بل مادة لدنة تتجزأ هي أيضا أجزاء متمايزة لامداد الفكر بما يحتاج اليه من الدوال ... ولكن الدور الاساسي الذي تقوم به اللغة بالنسبة للفكر ليس هو خلق الوسيلة الصوتية المادية للتعبير عن المعاني بل التوسط بين الفكر والصوت بحيث يفضي ارتباطهما لزوما الى أن تصير الوحدات الناتجة عنه محددتين متوازيتين . فالفكر الذي هو فى أصله شواش لا يجد بدا من أن يصير بينا عندما يتجزأ . فليس هناك اذا أي تجسيد للمعاني وأية روحنة للاصوات ... ويمكن أن تشبه اللغة أيضا بورقة يكون الوجه فيها هو الفكر والظهر هو الصوت . علما بأنه لا يمكن أن يقطع وجهها دون أن يقطع فى الوقت نفسه ظهرها فكذلك اللغة لا يمكن أن يعزل فيها الصوت عن الفكر (أي المعنى) ولا الفكر عن الصوت ، ولا يتوصل الى هذا الا بتجريد ذهني تكون عاقبته الانصراف الى الدراسة النفسانية البحتة أو الصوتية المحضة . وعلى هذا فان العمل الذي تقوم به اللسانيات يقع فى المكان الذي

---

(88) الاعتباط هو فى أصل اللغة « قتل شخص بلا جناية توجب قتله » وكل من مات بغير علة فقد اعتبط (أنظر لسان العرب ، مادة عبط) . وفى اصطلاح اللغويين العرب هو الحدث الذي ليس له علة يقال : حذف اعتباطي أي حذف بغير علة أو سبب ظاهر . ويعبر علماء الكلام واللغويون الذين جاؤوا بعد سيبويه عن هذه العلاقة التي ليس لها علة « بعدم المناسبة بين الاسم والمسمى » أو أنها ترجيح بدون مرجح (أنظر مقالنا السابق ، الهامش 36) .

(89) مرتبط به لا عن سبب ـ منطقي أو طبيعي (= لا تلازم عقلي أو طبيعي بينهما) .

(90) نفس المصدر ، 100 ـ 101 .

تتلاقى فيه العناصر الخاصة بكل واحد من هذين القبيلين ، **وهذا التركيب ينتج صورة لا مادة** (91) .

« يحصل بين جميع الافراد الذين تجمعهم صلة اللغة شبه معدل : فكلهم يحكون ــ لا بالحرف بدون شك ولكن على الوجه الاقرب ــ نفس الادلة مرتبطة بنفس المفاهيم . فما هو مصدر هذا التبلور الاجتماعي ؟ وأي واحد من الاجزاء التي تتكون منها دورة التخاطب يمكن أن يكون هو السبب ؟ فلاشك أنها ليست كلها سببا فى احداثه . أما الجزء الفيزيائي فيمكن من الآن أن يبرأ من ذلك لأننا عندما نسمع من يتكلم بلغة لا نعرفها ، ندرك بالفعل الاصوات ولكن بعدم فهمنا لها نبقى خارج الحدث الاجتماعي . أما الجزء النفساني فلا يشارك فى ذلك كله : فجانب التأدية لا دخل له لأن التأدية ليست أبدا من عمل الجماعة بل من عمل الفرد دائما والفرد دائما صاحب أمرهـا . وهـي التي نسميها parole (= الكلام كفعل من أفعال الفرد) .

« اللسان هـو رصيـد (trésor) يستودع فى الاشخاص الذين ينتمون الى مجتمع واحد بفضل مباشرتهم للكلام وهو نظام نحوي يوجد وجودا **(تقديريا)** فى كل دماغ أو على الاصح فى أدمغة المجموع من الاشخاص لأن اللسان لا يوجد كله عند أحد منهم بل وجوده بالتمام لا يحصل الا عند الجماعة .

« وبفصلنا اللسان عن الكلام ، نفصل فى الوقت نفسه : ما هو اجتماعي عما هو فردي ، ما هو جوهري عما هو اضافي أو عرضي فى بعض الاحيان .

« ليس اللسان من وظائف المتكلم بل هو أثر يسجلـه الفـرد بكيفيـة سلبية (92) ... بخلاف الكلام فانه عمل الفرد يتعمده ويتبصر فيه ويجب أن نميز فيه بين شيئين : التركيبات التي يركبها المتكلم عند استعماله لوضع اللسـان (le code de la langue) للتعبير عن غرضه الشخصـي والآليـة النفسانية الفيزيائية التي تمكنه من اخراج هذه التركيبات .

« ... اللسان نظام لا يخرج عن الترتيب الذي وضع عليه . وسنمثل لذلك بلعبة الشطرنج حتى نتبين هذا المعنى أحسن . فمن السهل ، الى حد ما ، أن نميز ههنا ما هو خارجي عما هو باطني : فانتقال هذه اللعبة من فارس الى أوربا هو أمر خارجي بخلاف كل ما يخص النظام وقواعد اللعب فهو أمر باطني : ان استبدلت القطع الخشبية بقطع من العاج ، فان هذا التغيير لا يمس النظام : ولكنني ان نقصت أو زدت عدد القطع فهذا التغيير سيخل أيما اخلال « بالنحو » الذي وضع عليه اللعب ... (93) .

---

(91) نفس المصدر ، 155 ــ 157 . لان المعاني مثل الاصوات هي مادة بالنسبة الى الهيئة التي تجمعهما ويتشكلان بها (وبهذا التشكل تتمايز عناصرهما) .

(92) هذا ما سينتقده تشومسكي فيما بعد (سنتعرض لذلك عند كلامنا عن « التفريعية ») .

(93) نفس المصدر ، 29 ــ 31 .

« ان آلية اللغة كلها جارية على اتحاد الهويات واختلافها وما هذه الاخيرة الا المقابل لتلك. وعلى هذا فمشكلة اتحاد الهويات هي مشكلة عامة الوجود ، ولكنها لا تتميز ، من جهة اخرى ، عن مشكلة الكيانات والوحدات وليست الا صورة لها أكثر منها تعقيدا ، على أنها مثمرة . وتظهر هذه الصفة جليا بالتشبيه بينها وبين بعض الاحداث غير اللغوية. فاتحاد الهوية يخطر بالبال اذا تكلمنا عن قطارين يلقب كل واحد منهما باكسبريس « الثامنة و 45 . د . مساء ، جونيف ـ باريس » يقلع احدهما قبل الآخر بأربع وعشرين ساعة . فهذان هما في نظرنا اكسبريس واحد مع أن كل شيء فيهما : القاطرة والشاحنات والمستخدمين ، يختلف لا محالة . وكذلك اذا هدم شارع ثم اعيد بناؤه قلنا انه نفس الشارع مع أنه ربما لم يبق من حيث مادته أي شيء من الشارع القديم . فكيف يمكن أن يعاد بناء شارع بأكمله ولا تزول عنه هويته ؟ ذلك لأن الكيان الذي تتكون منه ليس مادة صرفة بل يتقوم من بعض الصفات لا تدخل فيها مادته العارضة ، كموقعه ، مثلا ، بالنسبة لمواقع الشوارع الاخرى . وكذلك الاكسبريس فالذي يقوم كيانه هو الساعة المعينة التي يقلع فيها ثم الخط الذي يسير فيه وبصفة عامة كل الظروف التي تميزه عن الاكسبريسات الاخرى . فكلما حصلت نفس الشروط ، حصلت نفس الكيانات ... أما بالنسبة الى اللغة فكلما نطقت بكلمة (Messieurs) (سادتي) فانني أجدد بذلك مادتها : لأن كل نطق مني لها هو تلفظ جديد وانجاز نفساني جديد فالرابط بين التأديتين لنفس الكلمة لا يعتمد على اتحاد المادة ولا على اتحاد تام بين الاغراض بل على صفات أخرى ينبغي أن نبحث عنها وهي التي ستتبين بها عن كثب وبكيفية محسوسة ماهية الوحدات اللغوية الحقيقية » (94) .

« ... كل هذه المفاهيم التي تكلمنا عنها في هذه الفقرة (المفاهيم اللغوية) لا تختلف في جوهرها عما سميناه في موضع آخر valeurs (95) .

---

(94) ص 151 ـ 152 .

(95) تدل هذه الكلمة الفرنسية (ومثلها Value الانكليزية) في اصل وضعها على قيمة الشيء وقدره بوجه عام وخصوها ايضا للشيء الذي يقوم مقام شيء آخر في المعاملات وتكون له نفس القيمة أو التقدير ولا يتم هذا الا اذا أعطاه المتعاملون الصلاحية في ذلك (انتبه الى العلاقة القائمة بين هذه الكلمة العربية وبين كلمة مصطلح أو اصطلاح) وذلك مثل اوراق النقد والسندات والشيكات وغيرها مما يصطلح عليه في المعاملات . ولا تتحدد قيمتها الا بالنسبة الى غيرها وطبق سوسور هذا المفهوم على الوحدات اللغوية المحسوسة لأن المعتبر فيها ليس هو مادتها بل مؤداها (fonction) أو مدلولها (signifié) المصطلح عليه (و كلاهما يسمى عنده valeur) ولانه لا يمكن أن يحصل اصطلاح الا بالتكافؤ وبالتقابل . وقد اطلقنا على المفهوم العام لفظة التقدير (انظر تفسير الزمخشري للاية الكريمة « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » (الفرقان ، 2) « .. قدره وهياه لما يصلح له ») . وهذا التقدير يمكن أن يسمى صلاحية اذا اعتبرنا فيه القدرة على القيام بعمل بالنيابة عن شيء آخر وبتواضع الجماعة . أو المنزلة بالنظر الى نزول الشيء منزلة غيره ومقابلته لشيء آخر او الموقع والموضع (قارن هذا اللفظ بالوضع والمواضعة وقارنه ايضا باستعمال قدماء النحاة له) valeur ← position اما اطلاق لفظ الـ valeur على الوحدة نفسها فماخوذ ايضا

وسنتبين ذلك بالرجوع الى تشبيه اللغة بلعبة الشطرنج . ولننظر الى أحد الخيالة : هل هو فى نفسه عنصر من عناصر اللعب ؟ طبعا لا ، لأنه فى مادته وخارج خانته وبقطع النظر عن أحوال اللعب الاخرى ، لا يمثل شيئا بالنسبة الى اللاعب ولا يصير عنصرا حقيقيا ومحسوسا الا اذا قدر له تقديره وصار هو وذلك التقدير شيئا واحدا . ولنفرض مثلا أن أثناء اللعب يصاب بمكروه : يتلف أو يفقد : فهل يمكن تعويضه بما يعادله ؟ أجل : وليس فقط بخيال آخر بل حتى بصورة مغايرة له تماما فى الشكل ونقول مع ذلك انهما شيء واحد بشرط أن نمنحهما نفس التقدير (= أن ننزلهما نفس المنزلة) . وهكذا نرى أن مفهوم الاتحاد الذاتي ومفهوم القدر (أو المنزلة) يحمل أحدهما على الآخر فى داخل الانظمة الدلالية ــ كاللغة مثلا ــ حيث يحصل لعناصرها توازن وفقا لقواعد معينة (96) .

« ... تركب كل لغة ألفاظها بالاعتماد على نظام من العناصر الصوتية كل واحد منها يكون وحدة ذات حدود بينة ويكون عددها محصورا حصرا تاما . أما الوصف الذي يميزها فليس كما يظن ، نوعيتها الخاصة بها والايجابية بل عدم التباس بعضها ببعض . ولهذا فالحروف هي قبل كل شيء كيانات تباينية ونسبية وسلبية . والدليل على ذلك هو الحرية التي يتمتع بها المتكلمون فى تأديتهم للحروف ما داموا متمسكين بما يميز بعضها عن بعض ، ففي الفرنسية مثلا النطق بحرف r بجعلها لهوية (أي مثل الغين) وهو الاستعمال الشائع ، لا يمنع بعض الناس ، وهم كثيرون ، أن ينطقوا بها بترديد طرف اللسان (مثل الراء) (97) : وهذا لا يخل باللغة ، لأنها لا تطلب الا الاختلاف بين حرف وآخر ولا تطالب ، كما قد يعتقد ، أن يبقى الصوت على صفة واحدة لا يتغير . واستطيع أن انطق بحرف r الفرنسي مثل حرف ch الالماني الذي يحصل فى مثل Bach و doch (98) ، ولكنني

من استعمال الاقتصاديين . والذي شاع اليوم فى العربية هو لفظة القيم (جمع قيمة) وكان من الممكن أن نقول فى مثل système de valeurs نظام من التقديرات أو من المقدرات لأن هذه الامور هي أشياء متصورة منوية فى الوحدات المادية (الاقتصادية أو الدلالية) التي هي محلها .

(96) نفس المصدر ، 1953 ــ 154 .

(97) صوت الراء وصوت الغين لا يتمايزان فى الفرنسية من حيث مؤداهما (أي من حيث صلاحية كل واحد منهما أو عدم صلاحيته للتمييز بين المعاني وبالتالي للتمييز بين كلمة واخرى) . فانهما وان كانا من مخرجين مختلفين وذوي صدى مختلف فان تعاقبهما فى داخل الكلام لا يغير معناه بخلاف العربية فانهما حرفان متمايزان فيها (أي فى وضع العربية واصطلاحها وذلك مثل : غاب / راب) .

(98) ch يمثل حرف الخاء (اذا جاء بعده o أو a أو u) فى الالمانية . أما الفرنسية فلا تعرف هذا الحرف فاذا اتفق أن ينطق المتكلم بهذه اللغة بخاء فى محل الغين أي غين ناقص منها الجهر لم يغير هذا معنى الكلمة بخلاف المتكلم با لالمانية .

لن أستطيع أن أنطق فى الالمانية بـ r مثل ch لأن هذه اللغة تعرف كل واحد من هذين العنصرين (أي تجعلهما حرفين اثنين لا حرفا واحدا) فلابد من أن تميز بينهما » (99) .

« علم اللسان السكوني وعلم اللسان التطوري (linguistique statique et linguistique évolutive): ... ان هذا الانقسام الثنائي الحاسم غير موجود فى أكثر العلوم الاخرى ، فانه ليس للزمان فيها تأثير خاص . فقد لوحظ فى علم الفلك أن الكواكب تعتريها تحولات هامة ولكن هذا العلم لم يضطر من أجل ذلك أن ينقسم الى نوعين من الدراسة . وكذلك علم طبقات الارض فان استدلالاته تسلط غالبا على ظواهر التعاقب الزماني (= المتعاقبات الزمانية : successivités) ولكنها اذا تعرضت الى الحالات الثابتة التي تكون عليها الارض فى وقت ما فانها لا تجعل من ذلك موضوع دراسة منفصلة انفصالا تاما . ويوجد أيضا علم وصفي للقانون وتاريخ للقانون ولكنهما لا يتعارضان عند أحد من الناس . وكذلك التاريخ السياسي للدول فانه يسير كله فى داخل الزمان واذا تعرض مع ذلك المؤرخ لوصف عصر معين فلا أحد منا يعتقد أنه خرج عن ميدان التاريخ . أما علم النظم السياسية فهو ، على عكس ذلك ، علم وصفي فى جوهره ولكنه يمكنه أن يعالج فى بعض المناسبات مسألة تاريخية دون أن تختل لهذا السبب وحدته .

« (وهذا كله) بخلاف .. الاقتصاد السياسي وتاريخ الاحداث الاقتصادية فانهما يكونان دراستين منفصلتين تماما فى داخل العلم الذي يشملهما . فالعلماء بتقسيمهم هذا يمتثلون ، بدون شعور منهم واضح ، لضرورة باطنية . والحال أن مثل هذه الضرورة تحملنا على تقسيم علم اللسان الى قسمين يخضع كل واحد منهما لمبدأ خاص به . والسبب فى ذلك هو أننا نواجه ههنا كما يواجه العلماء فى الاقتصاد السياسي (نفس المفهوم وهو) مفهوم **التقدير** (القيمة فى علم الاقتصاد) ، ففي كلا العلمين الموضوع هو **نظام (100) تكافؤ بين أشياء تختلف أجناسها** : فى أحدهما هو العمل والاجرة وفى الآخرة هو الدال والمدلول .

---

(99) نفس المصدر ، 164 – 165 .

(100) يجب أن نلاحظ أن سوسور لم يستعمل لفظة structure الا ثلاث مرات واستعمل مع ذلك كلمة système **138 مرة (انظر مونان ، مفهوم النظام عند انطوان ميي فى مجلة** *La Linguistique* **1961 ، 1 ، ص 24 وما بعدها) فهذا يدل على أن سوسور لم يكن هو الذي أذاع لفظة** structure **(البنية) ولم يسم مذهبه بالـ** structuralisme **لأجل استعماله لهذا اللفظ . ويظهر ان أتباعه كانوا أكثروا من استعماله للدلالة على ما يسميه هو** système **وافتتن كل من جاء بعدهم بهذا اللفظ (حتى صار ذلك « موضة » الآن فى جميع ميادين الحياة اليومية !) .**

« يكون من الافيد ، من غير شك ، لجميع العلوم ، أن تعتني أكثر بتوضيح المحاور التي تدور حولها موضوعات دراستها . يجب على هذا أن يميز فى جميعها، حسب الصورة الآتية :

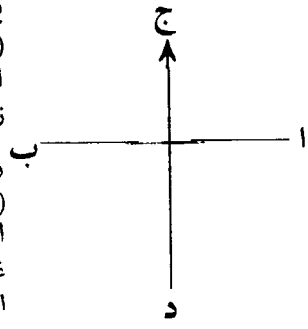

بين : 1) **محـور المتقـارنـات** (ا ب) (*axe des simultanéités*) وهو يخص النسب القائمة بين الاشياء المتواجدة (= المتزامنة أي الموجودة فى زمان واحد) ، ولا دخل لصروف الزمان فيه .

وبين : 2) **محور المتعاقبات** (ج د) (*axe des successivités*) الذي لا يمكن أن تعتبر فيه الاشياء الا واحدا واحدا (منفصلة غير متقارنة) غير أنه توجد فيه جميع الاشياء الموجودة فى المحور السابق بتحولاتها .

« ان هذا التمييز بالنسبة الى العلوم التي يتعلق موضوع بحثها بالمقدرات، هو ، عمليا ، شيء ضروري وقد يكون فى بعض الاحوال ضروريا على الاطلاق ... وبالنسبة الى اللغوي فضرورته ألح بكثير لأن اللسان هو نظام من المقدرات الصرفة ولا شيء يمكن أن يحددها فى خارج الحالة التي تكون عليها عناصرها ... ولابد أن نضيف الى ذلك أنه كلما ازداد النظام المتكون من المقدرات تعقدا وكان انتظامها أكثر دقة ، ازدادت ، من أجل ذلك التعقد نفسه ، ضرورة دراسته على المحورين كل على حدة . والحال أن اللسان لا يماثله نظام فى هذه الصفة : وبالفعل لا يمكن أن نلاحظ فى أي نظام آخر مثل هذه الدقة التي تتصف بها مقدراته المؤتلفة فيه ولا مثل كثرتها وتنوع عناصرها ولا مثل تلازمها الشديد ...

« هذا هو السبب الذي حملنا على التمييز بين نوعين من الدراسة فى علم اللسان » (101) انتهى كلام سوسور .

ان هذه المفاهيم وهذه الاعتبارات قد مضى عليها وقت ولم تسلم كجميع النظريات الانسانية من الانتقادات السلبية والايجابية الا انها أصبحت الآن النظرة الاساسية التي بنيت عليها اللسانيات وأصبحت المفاهيم الرئيسية التي تكون جوهرها ومادتها أشياء مسلمة عند جميع اللغويين بل قلما رأينا فى تاريخ البشرية نظرية تذيع وتسير بين الناس مثل هذه التي أخرجها سوسور يأخذ هذا منها ويرد ، يرفضها البعض ثم يرجع اليها نادما خاشعا، حتى البقية من التاريخيين المعاصرين وساقتهم تعترف لها بالفضل العميم

---

(101) نفس المصدر ، 114 ـ 116 .

وكادت نظرية تشومسكي الحديثة ، تثير مثل هذه الحركة ، وكانت لهـا اصداء عظيمة بالفعل ولكنها وان غيرت مجرى البحث العلمي فى اللغة الا انها لم تقنع الكثير من الباحثين وكأن نفسها الذي كنا كلنا نعتقد أنه سيمتـد ويطول ، قد أصيب ببعض الكلل (102) . وهذا لم يحصل بالنسبة لمذهب سوسور فى جملة آرائه الى الآن ولذلك أسباب : الاول هو أن نظريته تمس ذات اللغة وأوضاعها (وكان اللغويون فى زمانه لا يعرفون الا جزئياتها ولا يهتمون الا بتطور هذه الجزئيات) ، الثاني هو أنه قال فى ذلك ، القـول الفصل اذ لم يستطع أي واحد الى الآن أن يبطلها ابطالا كليا أو يأتي بنظرية مخالفة واصح منها فى نفس الوقت وكل من حاول أن ينقضها فانما اكتفى بنقض جزئياتها أو عنصر واحد من عناصرها أو تعرض لبعض أقواله الجازمة، فقصد فيها كيفية اطلاقه للقول لا صميم القول ، السبب الثالث هو موافقتها لما كان ينتظره الجيل الجديد من الباحثين فى بداية القرن العشرين واعتماد هذا الجيل حتى الآن (ولا يزال الكثير منهم على قيد الحياة) على أهم ما قاله سوسور ، السبب الرابع هو عدم مناقضة العلوم الاخرى لهذه النظرية بل بالعكس أيدتها وأسندتها بتبنيها اياها أو باقتباسها لبعض مفاهيمها أو بمجرد توافق جهات الاعتبار بينها وبين آراء سوسور (وهذا راجع الى ظاهرة توارد المعاني والمقاصد فى داخل المجتمع الواحد) . ولا تزال أفكار هذا اللغوي تغذي الى يومنا هذا أقوال الفلاسفة والادباء وعلماء الاجتماع وغيرهم **على مستوى دول العالم .**

على أن هذا لا يعني أنها أفكار قد بلغت الكمال ولا شيء يمكن أن نضيفه اليها أو نزيله عنها . فانها كغيرها من النظريات قاصرة ومحدودة (103) .. ومهما بلغته من الصحة والعمق فانه لابد أن تكون محدودة القدرة على تفسير

---

(102) ولا نرجو لها ذلك لانها ، حقيقة نظرية عظيمة الا انها تحتاج الى من ينميها ويثريها ولا يستطيع الآن ـ ولن يستطيع ـ اللغويون وحدهم (بمعلوماتهم وخبرتهم اللغوية الصرفة) أن ينموها الا بالتعاون مع علماء النفس اللغوي والاخصائيين فى الصوتيات النفسية والرياضيات الحديثة (الا أن يكونوا ممن يجمع بين هذه العلوم مثل تشومسكي نفسه) .

(103) ينبغي ان نفهم جيدا مغزى هذا فلا نقع فيما وقع فيه من التهافت أهل التشكك من المفكرين قديما وبعض البسطاء من أهل ملتنا فى زماننا فنظن أن مصير النظريات العلمية كلها البطلان والزوال لما يظهر لنا من انهيار بعضها على اثر البعض الآخر . وليس هذا صحيحا ابدا لأن النظريات الجدية غير الخيالية أي العلمية الحقة لا يمكن ان تبطل كلها . ولا تكون علمية الا اذا اعتمدت على استدلال عقلي قوي وصياغة دقيقة لحججها ومسالك تفريعها هذا مع ارتباط مفاهيمها فيما بينها ارتباطا وثيقا واسناد الواقع لاكثر اعتباراتها وتخميناتها . والذي يبطل فيها ـ لانها ، على كل حال ، من جنس الافتراضات (ولاستحالة البرهنة عليها فى جملتها) ـ هو ، بعد مرور برهة من الزمان ، شموليتها التي يمنحها اياها أصحابها (زيادة على بعض المفاهيم والاعتبارات الجزئية) . ولا يتبين ذلك جيدا الا بظهور نظرية جديدة تثبت عدم صلاحيتها لجميع الظواهر وتحاول فى نفس الوقت أن تدمجها فى نظام

جميع ما يخص اللغة وأحداثها . والذي استطاع أن يبين وجوه قصورها **ـ لا خطاها ـ** بقول فصل أيضا هو تشومسكي اللغوي الامريكي الذي تعددت اشاراتنا اليه منذ البداية . فانه لم ينقض المفاهيم التي ذكرناها ولا النظرة البنوية بصفة عامة (فهي من أرسخ نظراته) بل يعترف لنظرية البنويين ومتفرعاتها بفضل عظيم وهو تحديدها للعناصر الهامة التي يتكون منها موضوع اللسانيات كمفهوم الدلالة اللغوية ومفهوم نظام الادلة ثم تمييزها الحاسم بين نظرة الباحث الى هذه الاشياء فى ذاتها ونظرته الى تحول جزئياتها عبر الزمان مع جعل الاسبقية للنظرة الاولى . الا أنه يعتقد ـ ويبرهن على ذلك ـ أنها **غير كافية** لتفسير وتعليل ظاهرة التبليغ اللغوي فى جملتها لأنها تخص مظهر اللغة القراري الذي يتمثل **فى الكلام بعد أن يحدثه المتكلم** فلا يمكن أن تكشف عن ديناميتها الباطنية (104) أي كيفية حصولها من القوة الى الفعل أو بعبارة اخرى : كيفية استعمال المتخاطبين لها أثناء ارسال الخطاب واستقباله . فمفاهيم سوسور جد ضرورية لتشخيص الوحدات اللغوية وتحديدها وبيان كيفية اندراجها فى نظامها الا أنه لا يمكن أن يتعدى بها الباحث هذه المرحلة من البحث فهي الى الوصف المجرد والتصنيف وتحديد الذوات اللغوية فى داخل نظامها أقرب منها الى تعليل تركيباتها فى مدرج الخطاب وتفسير تفرع هذه التركيبات بعضها من بعض

مفاهيمها بجعلها جزءا أو مظهرا خاصا من مظاهرها أو مرحلة تمهيدية لها . وبذلك فان مستواها يكون ادنى من مستوى النظرية الجديدة لكون هذه اوعب منها وأشمل . وهذا يخص النظريات البحتة الحقيقية وهي طبعا قليلة بالنسبة الى الآراء الصادرة من ذوي النزوات والبدوات .

(104) لم يلتفت سوسور ولا البنويون الذين جاؤوا بعده الى هذا المظهر الهام والذي منعهم من ذلك هو اعتقادهم بان كل ما خرج عن بنية الالفاظ المفردة ونظامها فهو راجع الى الفرد . فالجملة مثلا بما أنها تركيب لوحدات اللغة يقوم به الفرد فليست عندهم « لسانية » أي وضعية بل « كلامية » (أي من جنس الافعال الفردية لا من جنس المقدرات اللغوية !) ولذلك قال سوسور بان اللغة تنحصر كلها فى اصطلاح التخاطب فهي بذلك أثر يسجله الافراد فى ذاكراتهم بكيفية سلبية وهذه عثرته حسب ما يزعم تشومسكي ونحن نوافقه على هذا . وقد تنبه الى ذلك لغويونا قديما وأجروا عليه أبحاثهم . ولما صار المتاخرون لا يدرك أكثرهم فحوى كلامهم ، اختلفوا فى هل « وضع الواضع المفردات والمركبات الاسنادية أو المفردات خاصة دون المركبات ؟ » والذين اهتدوا الى وجه الصواب منهم هم النحوي المغربي أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي (توفي فى 606 أو 607 وقل من يعرف فضله . أنظر مقدمته المسماة بالقانون وشرحها للشلوبيني (توجد 3 نسخ منه فى الاسكوريال برقم 2 ، 36 و 190) فانه ممن أدرك جيدا مقاصد المتقدمين ولا نظن أنه كان يدين فى ذلك كله لما سمعه من شيخه ابن بسري . وهو صاحب القول الذي استهل به ابن أجروم مقدمته : « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » وكثيرا ما يردده معاصرونا دون ان يشعروا باهميته بالنسبة الى البحوث الحديثة) وتلميذه ابن معطي النحوي الجزائري (وكان الجزولي قد أقام مدة فى مدينة الجزائر يدرس فيها) ثم ابن الحاجب (570 ـ 646) ثم أبو حيان الاندلسي .

حتى يمكن أن « يعبر عن اللامتناهي من المعاني بالمتناهي من الالفاظ » (105) وسنشرح ذلك بالتفصيل فى موضعه ان شاء الله .

ينبغي الآن ، قبل أن نختم هذا العرض التاريخي أن نشير الى المدارس التي ظهرت بعد سوسور . وستكون اشارتنا لها وجيزة لأننا سنطيل الكلام عن اتجاهاتها عند تحليلنا ـ فى الابواب التالية ان شاء الله ـ لمضمون اللسانيات الحديثة والنتائج التي توصلت اليها . واغلب هذه النزعات وهذه البحوث كانت امتدادا وتوسيعا لمذهب البنية اللغوية الذي وضع اسسه سوسور وبعض معاصريه ، ويمكن أن ترتب هكذا :

1) المدارس المنبثقة من مذهب سوسور مباشرة او منه ومن النزعات الاخرى :

ـ **مدرسة جونيف :** تكونت من اتباع سوسور السويسريين : بالي (A. Bally) وسيشوهي (Sechehay) وهما اللذان جمعا ونشرا دروس سوسور كما قلنا . وكان لكل واحد منهما بحوث ذات صبغة خاصة . ومن هؤلاء الاتباع نذكر هنري فراي (H. Frei) وهو عالم جليل والباحث روبرت كوديل (R. Godel) وهو فرنسي الاصل .

ـ **المدرسة الفنولوجية المسماة بحلقة براغ** (106) نشأت يوم دخل تروباتسكوي وياكوبسون وكرسيفسكي فى الحلقة التي كان قد كونها بعض اللغويين التشيكيين . ففي سنة 1928 ظهرت الفنولوجية على مسرح النشاط العلمي العالمي بصفة رسمية وحدث ذلك فى المؤتمر الدولي الاول للغويين الذي انعقد فى لاهاي (107) وفيه طرحت آراء هؤلاء الباحثين

ونقل الزركشي ملخص اقوالهم . قال : « .. والحق ان العرب (المتكلمين الفصحاء) انما وضعت انواع المركبات ، أما جزئيات الانواع فلا . فوضعت باب الفاعل لاسناد كل فعل الى من صدر منه ، أما الفاعل المخصوص فلا .. » (المزهر ، 1 ، 45 . انظر فى هذا الكتاب ما نقله صاحبه عن هذا الخلاف) . ويا حبذا لو استطاع سوسور فى وقته أن يطلع على هذا الكلام ! .

(105) وسنرى أن هذه العبارة نفسها التي اخذها تشومسكي (وهو نفسه يعترف بذلك) من هومبولت توجد بصورة أكثر تجريدا فى كتاب الشفاء لابن سينا وكتب فخر الدين الرازي . والمصدر الاول للفكرة هم النحاة العرب (انظر كتابنا فى علم العربية) .

(106) اخص شيء تمتاز به هذه المدرسة عن غيرها هو اعتمادها الاساسي على العمل (او الدور) الذي تؤديه العناصر اللغوية فى عملية التبليغ ولهذا سميت النزعات المتفرعة عنها (ومنها مدرسة مارتيني الفرنسية) بالوظيفية (fonctionnelle) وبذلك تخالف المدرسة البنوية الامريكية . وسنرى أن لفظة fonction التي استعملها بلومفيلد لمعنى آخر استبدلها سوادش (Swadesh) أحد أتباعه بكلمة distribution (انظر فيما يلي كلامنا عن المدرسة الامريكية) .

(107) عقدت بعد ذلك 10 مؤتمرات دولية : فى جونيف (1931) وروما (1933) وكوبانهاكن (1936) ، ولم يجتمع اللغويون للمؤتمر الخامس لأجل الحرب ، أما السادس فانعقد فى باريس (1948) والسابع فى لندن (1952) والثامن فى اوسلو (1957) والتاسع فى كمبريج (فى الولايات المتحدة) (1962) والعاشر فى بوكورشت (1967) والحادي عشر فى مدينة بولونيا بايطاليا (1972) .

الروسيين وينتمي الى هذه الحلقة الباحثون التشيكيون : ماتيسيوس (V. Mathesius) وترنكا (B. Trnka) وفاشيك (J. Vachek) .

— **حلقة كوبانهاكن اللغوية :** ظهر الاهتمام بالافكار اللغوية الجديدة بالدانمارك في وقت مبكر (وقد ذكرنا من الباحثين الدارنماركيين المتازين راسموس راسك ومادفيك) وظهرت في الربع الثاني من القرن العشرين نزعة بنوية جد متأثرة بأفكار سوسور وأشهر من كان يمثلها هم بروندال (V. Brøndal) ويلمسليف (L. Hjelmslev) وأولدال (H. Uldall) وهذان اللغويان الاخيران هما اللذان أسسا ما سمياه بال Glossématique وهي تمثل نظرية سوسور في أقصى درجات التجريد الصوري . وينتسب الى هذه الحلقة ديدريشيسن (P. Diderichsen) وهانسين (A. Hansen) وايكو (Nels Ege) وسبانج هانسين (H. Spang-Hanssen) وتوجبي (Knud Togeby) والباحثة المتازة التي ذكرناها : فيشريوركانسن (Eli Fischer-Jørgensen) .

ومن الباحثين الذين لا ينتمون الى احدى هذه المدارس الا أنهم اتخذوا البنوية أساسا لابحاثهم (وهم كثيرون جدا) نذكر : من هولاندا : فان فيجك (N. Van Wijk) ودي كروت (A. de Groot) ومن بلجيكا : بويسينس (E. Buyssens) ولوروا (M. Leroy) ومن فرنسا : كوكانهايم (G. Gougenheim) وأندري مارتيني (A. Martinet) وفوركي (J. Fourquet) وجان كانتينو (J. Cantineau) وهودريكور (Haudricourt) وجويليان (Juilliand) ومونان وغيرهم . ومن النرويج : آلف سوميرفلت (Alf Sommerfelt) وفوكت (H. Vogt) ومن السويد : لبنروث (Lindroth) وبرتيل مااللمبرج (B. Malmberg) ومن بولونيا : دروزفسكي (W. Doroszewski) ويرزي كوريلوفتش (J. Kurylowicz) ومن سويسرا : كلينتس (H. Glinz) ونائرت (P. Naert) ومن أسبانيا : أمادوالونسو (A. Alonso) والاركوس يوراتش (E. Alarcos-Llorach) ومن البرازيل : كوسيريو (E. Coseriu) ومن النمسا : بوهلير (K. Bühler) وكان من علماء النفس أيضا ومن ايطاليا : بلاردي (W. Belardi) وتاليافاني (C. Tagliavani) وغيرهم (108).

---

(108) نذكر أيضا من التاريخيين أو المقارنين الذين اهتموا بالدراسة الآنية (وناقشوا البنويين في ذلك) الباحث الدانماركي الغزير العلم : أوتويسبرسن (O. Jespersen) وهو ممن توصل (وهم سابير وسويت وباسي وجونس وبودوان دي كورتوني) الى تحديد مفهوم ال phonème بمعزل عن سوسور ومن هؤلاء أيضا فالتر فون فارتبورج (W. V. Wartburg) العالم السويسري المشهور . وكذلك بعض اتباع ميي مثل اميل بنفينيست (E. Benveniste) ومارسيل كوهين (M. Cohen) (وهما لغويان فرنسيان ممتازان قد اديا خدمات كبيرة للسانيات) أما فندريس فهو أيضا من اتباع ميي وناقش ، مثل زملائه التاريخيين ، آراء البنويين الا أن دراسته لظاهرة اللغة يرجع أكثر أفكارها الى الجزء المردود من أفكار القرن التاسع عشر (ولا ننس انه أنهى كتابه « اللغة » في سنة 1914 كما يقوله هو نفسه ولم ينشره الا في 1921) وليس في هذا الكتاب فكرة واحدة تنسجم تماما مع التيارات العلمية التي بدات تنطلق في ذلك الزمان (أي في بداية القرن العشرين . أما القول بان اللغة حدث اجتماعي فلم يكن عند ميي وفندريس عاملا تجديديا وانما ساعدهما على تلطيف بعض المواقف المتطرفة).

2) المدارس التي لم تنبثق عن السوسورية (الا أن بعضها تأثرت بهـا فيما بعد) :

ـ **المدرسة الروسية** وكانت في أول أمرها حلقتين : حلقة موسكو ورائدها فورتوناتوف (1848 ـ 1914) وحلقة قازان ، سميت بذلك لأن صاحبها بودوان دي كورتوني كان يدرس في هذه المدينة عدة سنين . وجمدت حركتهما بسبب طرؤ نظرية جديدة ، في منتهى السخافة (109) . ثم رجعت الامور الى مجراها الطبيعي بعد سنة 1950 .

ـ **المدرسة الانكليزية** : تتكون من نزعتين انطلقت احداهما من تلك الفنولوجية التي وضعها العالم الصوتي المشهور دانيال جونس (D. Jones) والاخرى هي مدرسة قائمة برأسها تتمايز تماما عن النزعات التي ظهرت في ذلك العهد (1928) . وصاحبهما هوفرث (J.-R. Firth) . واكثر اللغويين الانكليز في زماننا هم من اتباع هذا الرجل . نذكر منهم بالمر (L.-R. Palmer) وبازيل (C.-E. Bazell) وهاز (W. Haas) وألين (W.-S. Allen)

وفندريس يمثل نزعة الفيلولوجية الفرنسية التقليدية والآراء الساذجة التي أظهرها النحاة المحدثون في الكيانات اللغوية مع الشيء الكثير من « الذرية » النفسانية التي اعتمدها فونت وغيره من علماء النفس قبل ظهور الكيشتالت . هذا فيما يخص كتاب فندريس في اللغة . أما بعد أن اطلع شيوخ التاريخيين على نظريات سوسور وترورباتسكوي وغيرهما فقد اختلفت مواقفهم ازاءها باختلاف مناصبهم ومشاربهم الا أن اكثرهم صعب عليهم أن يفتحوا صدورهم للافكار الطارئة فبقوا ينظرون الى كل شيء في اللغة بعيون القرن التاسع عشر ولا يحاول الا القليل منهم أن يكيف نظرته بما يقتضيه تطور الفكر وتحول أسباب العلم . الا أن هذا لا يعني أن الدراسات التي تعالج تطور اللغة قد اختفت الآن أو قل اهتمام الناس بها لأن الذي اختفى اليوم هو هذه النظرة المجزئة « الذرية » أما الدراسات التاريخية فلا تزال نشيطة الا أن أصحابها يحاولون دائما أن يوفقوا بين الجانب الزماني والجانب الآني بجعل موضوع تتبعهم التاريخي لا جزئيات اللغة بل نظامها (أي تطور عناصرها في داخل نظامها وبالنظر الى تلازمها في اثناء هذا التطور وهذا يعني انه كلما أصيب عنصر واحد من عناصر اللغة ، أصيب النظام كله بتغيير ما) . ومن البنويين الذين اهتموا بهذه الدراسة نذكر خاصة ياكوبسن (وهو الذي وضع أسس الفنولوجية الزمانية) ومارتيني وجوليان وهودريكور و كوريلوفيتش (ولهذا الاخير اعمال جليلة جدا لا يصح لاي مؤرخ للغة أن يتجاهلها) .

(109) وكانت اشبه شيء بالمذاهب الفلسفية المتزمتة (وذلك مثل مدرسة كروتشي وفوسلير التي مر ذكرها) وصاحبها هو مار (N. Marr) (1865 ـ 1934) الروسي الذي حاول أن يطبق النظرية الماركسية على دراسة اللغات ! فكان يرى أن اللغات هي مثل الطبقات الاجتماعية تتطور مثل تطورها ولهذا فلغة الطبقة الكادحة الروسية هي مماثلة للغة جميع الطبقات الكادحة الاخرى ومخالفة للغة الطبقات المتمولة ومآل هذه اللغة الاخيرة هو الزوال دفعة واحدة بعد انتصار الثورة العالمية ! وسلطت هذه الآراء السخيفة على البحوث والتعليم مدة 30 سنة حتى تدخل رئيس الدولة ستالين نفسه فقضى عليها بمقال نشر في البرافدا عام 1950 . وأظهر فيه ستالين انكاره على أفكار مار (وكانت حقيقة كارثة على الاتحاد السوفياتي) وآخذ عليه عدم فهمه لماركس والمادية الجدلية وقال بأن اللغة وان كانت تتأثر بالاختلاف الطبقي الا انها شيء مشترك بين جميع طبقات الامة .

وخصوصا أولمان(S. Ullmann)ولكن أشهرهم وأعظمهم فضلا هو هاليدي (A. K. Halliday) وله نظرية فى البنية اللغوية من أحسن ما وضع بهذا الصدد وقد التف حوله بعض من ذكرناهم من أتباع فرث وكونوا مدرسة جديدة سميت بالفرثية .

ـ **المدرسة البنوية الامريكية** : انبثقت لا من نظرية سابقة بل من المجهودات التي بذلها اللغويون فى وصف اللغات الامريكية الاصلية (لغات « الهنود الحمر ») وصفا موضوعيا علميا . و كانت هذه المحاولات بالنسبة الى الزمان الذي بدأت فيه التحريات فى عين المكان ، عويصة جدا اذ كان عهدا ازدهرت فيه النظريات والمناهج التاريخية وهي لا تنفع واصف الاوضاع اللغوية (110) . فاضطر الباحثون الامريكيون فى أول أمرهم الى أن يرتجلوا المناهج المناسبة لموضوع بحثهم ثم استنبطوا شيئا فشيئا من مباشرتهم لعملهم الوصفي التصنيفي مباديء وقوانين جمعوها فى نظرية عامة معتمدين فى ذلك على الكثير من أقوال ويتني كما سبق أن قلناه . وأول من فعل ذلك هو فرانتس بواس (F. Boas) (فى 1911) وتلاه سابير (E. Sapir) ثم بلومفيلد . وابتداء من 1920 صارت اللسانيات الامريكية تمتاز عن البحوث الاوربية وأخذت طابعها الخاص بها خصوصا بعد أن استعار بلومفيلد فكرة البيهافيورية من علماء النفس الامريكيين وطبقها على التحليل الوصفي اللغوي ثم تعداها الى نظرية شاملة عميقة جدا بناها على مفهوم الاستغراق (111) (كان يسميه fonction مع ان هذا اللفظ غير صالح لهذا المعنى ولذلك استبدلها سوادش بكلمة *Distribution* وبعد ذلك سمى مذهبه بالـ *Distributionalisme* وكل الباحثين الذين اشتهروا بعده فهم اما من طلبته واما ممن تأثر بأفكاره . نذكر منهم : بلوك وتراكر (G.-L. Trager, B. Bloch) وهيل(A.-A. Hill) ونايدي (E. A. Nida) وولس (R.-S. Wells) وسوادش (W.-F. Swadesh) وهوكن (E. Haugen) وكرفين (P. L. Garvin) وغيرهم كثيرون . وننوه ههنا بعمل ثلاثة من العلماء البارعين الذين لم يكتفوا بما وجدوه عند بلومفيلد وسابير وهم : هوكيت (C. F. Hockett) وبايك (K. L. Pike) وهاريس (J. Harris) وسنطيل الكلام عما وضعوه وانتجوه فيما بعد هذا .

---

(110) ولا ننس عاملا آخر وهو اهتمام الامريكيين الشديد (أشد بكثير مما عند غيرهم) بمشاكل تعليم اللغات ، خصوصا بعد شعورهم أثناء الحربين العالميتين بعدم نجاعة المناهج التعليمية (وحدث هذا الشعور عندما تعذر على الجنود وضباطهم الكلام باللغات التي كانوا يظنون أنهم يحسنونها وما كانوا يحسنون فى الواقع الا الترجمة بالقواميس !) وفضل علماء اللسانيات فى أمريكا على الاوربيين هو عدم تحرجهم من البحث فى المشاكل التطبيقية . وهذا يدل على ان وطأة التقاليد العلمية الارسطوقراطية (التي ورثتها أوربا عن فلاسفة اليونان (= امتناعهم من معالجة الامور التقنية وتركهم ذلك لعبيدهم) هي عندهم أخف مما عند العلماء الاوربيين .

(111) سنحلل هذا المفهوم فى موضعه ان شاء الله .

اما مذهب تشومسكي فلم يقو ولم يستفحل الا في السنوات الاخيرة (أول دراسة ظهرت في النحو التفريعي = Generative grammar هي كتابه المسمى **بالمباني التركيبية :** *Syntactic Structures* ، الذي صدر في سنة 1957) . وسنخصص لهذه النظرية الهامة بابا واسعا في آخر هذا المدخل . أما هذه اللمحة التاريخية التي ختمناها بهذا العرض الوجيز للمدارس الحالية فلا يمكن أبدا أن يكتفي بها القاريء ليتبين جيدا أهم ما يحتوي عليه علم اللسان الحديث وما حققه من نتائج الى يومنا هذا ولذلك سنشرع ابتداء من الابواب المقبلة في تحليل كل المناهج والتقنيات الدقيقة التي يستعملها **الآن** علماء اللسانيات (112) في بحوثهم وكذلك النظريات الهامة التي أشرنا اليها ولم نحللها بعد (مع توجيه انتقادنا وانتقاد غيرنا لها كلما اقتضاه الحال) . كما سنتعرض أيضا لمكاسب اللسانيات في ميدان **التطبيق** ونذكر علماء آخرين برعوا في البحث التطبيقي ونحاول في كل ذلك ان نبين الفكرة الاساسية التي بنوا عليها نظرياتهم ومناهجهم وما حققوه من نتائج في جميع ميادين البحث اللساني ، ان شاء الله تعالى .

(يتبع)

عبد الرحمن
الحاج صالح

---

(112) كطرق المقارنة التاريخية الحالية ومناهج التحليل الوظيفي والاستغراقي واستعمال الرياضيات اللغوية في النحو التفريعي والاحصائيات وكتقنيات الصوتيات التجريبية الحديثة وغيرها .